عذراء باريس

"ايفت"

www.liilas.com

florist

روائع الأدب العالمى

روائع الأدب العالمي

سلسلة يصدر فيها تباعا

أجمل وأروع القصص لأكبر أدباء العالم

ثمار السلسلة

رمز الجمال والمتعة والسعادة

لدى قدماء المصريين

(العدد الأول) يناير سنة ١٩٥٤ (السنة الأولى)

عذراء باريس

للقصصي الخالد

جي دي موپاسان

ترجمة

محمود الشريف

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد — تليفون ٥٠٣٣٧

إلى القارئ العزيز :

تزف إليك أول قصة من سلسلة روائع الأدب العالمي ، وهي قصة عذراء باريس للقصصي الخالد « جي دي موپاسان » .

وعذراء باريس نموذج حي لهذه القصص العالمية الإنسانية التي تعبر أصدق تعبير عن الجمال ؛ فإن خير الأدب هو ما كان تصويراً جيداً للحياة الإنسانية بما تحتوي عليه من نماذج رائعة ، وإن أبدع القصص هو ما اتجه إلى القلب يعرض عليه ألواناً من الفن الجميل .

إن الأدب العالمي أدب إنساني يعبر عن الجمال ، والجمال متعة ، والمتعة يجب أن تكون لجميع الناس ، لا لطبقة تزعم أنها أسمى الطبقات ، وأكثرها فهماً ، فتجعل الأدب ترفاً عقلياً ، وكأن الغموض لديها دليل على العمق .

إن الهدف الأول لهذه السلسلة هو أن تشيع ، في غير إسفاف ، رغبة كل قارئ مهما اختلفت درجة ثقافته ، وستطلعه على أروع ما أبدعته قرائح كبار الكتاب في بلاد العالم .

إنها قصص رائعة ، سيقرأها كل إنسان ، وسيجد فيها كل متعة وجمال .

محمود الكاتب

تفسير الشعار

العين هى الرمز الذى يجده الإنسان على عدد كبير من الآثار المصرية الفرعونية ، ويدل هذا الرمز دلالة حرفية على عين الشمس التى يفيض منها كل خير ومتعة وسعادة .

أما العالم فهو الجبل أو المسرح الذى اختارناه لهذه العين التى خلقت بطبيعتها محبة للجمال تبحث عنه فى كل مكان : فى مشارق الأرض ومغاربها .

www.liilas.com
منتديات ليلاس

— ١ —

ليلة هادئة من ليالى الصيف ، جالت فيها نسمات رقيقات أنعشت رواد المقاهى المنتشرين فى جموع متقاربة على الأرصفة حول الموائد الصغيرة المغطاة بالزجاجات والأكواب . وألقت المقاهى بأشعتها الغامرة وأضوائها المنسابة على جماعات الشاربين الذين ازدحموا على الطوار وقد أفعمت قلوبهم غبطة وامتلأت مسرة وبهجة . ثم ألقت بالبقية الباقية من نورها وضيائها إلى عرض الطريق الذى تسير فيه عربات ضخمة مسرعة ، ذات مصابيح حمراء ، تجرها خيل غلاظ يمسك بأعنتها سائقون مهرة تظهر ظلالهم نحيفة مديدة عند ما تغمرهم أضواء الشوارع ، هم وعرباتهم .

وقال جان دى سرفينيه لصديقه ليون سافال ، وهما يهمان بالخروج من مقهى « ريش » .

— إننا سنذهب إلى هناك مشياً على الأقدام ؛ فالجو جميل يغرى بالسير ، ويغنى عن ركوب العربات . ألست معى فى ذلك ؟ .

— إن ما قلته هو عين الحقيقة ، ويا له من رأى ! .

— وقد أشرفت الساعة الآن على الحادية عشرة ، ومعنى ذلك أننا سنصل حتما قبل انتصاف الليل بوقت كبير ، فهيا بنا إذاً نتريث فى المشى ونسير الهوينى . وسار الصديقان بخطوات بطيئة وقد احتل السيجار مكاناً فى فم كل منهما ، كما وضع كلاهما معطفه على ذراعه ، ووردة فى عروة سترته .

أما القبعة فقد مالت إلى ناحية من الرأس على وضع يوحى بأن صاحبها هادئ النفس معتدل المزاج .

وقد عقدت الصداقة بينهما رابطة قوية ، وآصرة مكينة متينة ، وعلاقة لم تنفصم منذ أن كان يجمعهما فصل واحد فى المدرسة الثانوية .

وكان أولهما جان دى سرفينيه رشيقاً أنيقاً ، أصلع الرأس قليلا ، فوق شفتيه الرفيعتين شارب ارتفع طرفاه إلى أعلا .

وكان قوى الجسم لا يتعب ولا يكل ، رغماً عن أن دلائل

الأعياء والإجهاد كانت تقرأ على سحنته . يبدو نحيفاً كواحد من هولاء الباريسيين الرياضيين الذين منحتهم البارزة ، والحمامات البخارية قوة عصبية وجسما ضامراً .

وكان أيضاً كواحد من هؤلاء الذين يمضون نهارهم فى النوم ويقطعون ليلهم فى سهر وصخب . عرف بصولاته وجولاته فى ميادين اللهو كما عرف بذكائه ولباقته . اشتهر بمغامراته ولياليه الحمراء كما اشتهر بأنه خلاب أخاذ يسحر القلب ويأسر اللب . يتصف بالألفة والجاذبية ، والرقة وحسن المعاشرة ، فضلا عن تأنقه المعهود عند بعض ذوى الحيثيات .

باريسى حقيقة ، إلا أنه مع ذلك متشكك مرتاب متقلب ، سهل القياد متحمس متردد ، قادر على كل شىء وعلى لا شىء ، أنانى ، كريم أحياناً ، ينفق من دخله وإيراده بحساب وتوسط ، حتى تسليته ولهوه لم يتعد فيهما غالباً حدود الاعتدال ونطاق الصحة .

يطلق نفسه مندفعاً وراء الآراء أياً كانت ، ثم يتراجع فجأة . تتنازعه عوامل مختلفة وميول غريبة وغرائز متضادة . منطقه كالروحة التى تميل مع الهواء حيث يميل .

يستغل الفائدة ، ويقتنص المكاسب التى تجود بها عليه الظروف من غير أن يجهد نفسه أو يشق عليها لإيجاد هذه الظروف .

وزميله ليون سافال أقل منه مالا وثروة إلا أنه أشد قوة وأضخم جثة وأمتن بنياناً . يبدو كواحد من هؤلاء المهاقة الذين يجذبون أنظار السيدات إذا ماساروا فى الطرقات . من براعيظن أنه صورة حية لبعض أفراد الأجيال الماضية ، أو نموذجاً من نوع تلك النماذج الفارعة التى تحتل حيزاً ضخما فى بعض المعارض . وقد دفعه جماله وقوته إلى أن يتزلق مع أكثر من امرأة :

وعند ما وصلا أمام « فودفيل » سأل سافال :

— هل أخبرت هذه السيدة بأنى سأحضر معك الليلة ؟

وأجاب سرڤينيه وهو يضحك :

— أخبر الماركيزة أوباردى ! ! وهل تخبر سائق العربة العامة بأنك سوف تركب فى عربته ؟ ! !

وارتبك سافال قليلا ثم قال :

— إذاً ما حقيقة هذه السيدة ؟

— حديثة عهد بالنعمة والغنى ، مجهولة الأصل والنسب ،

لا يدرى أحد كيف نشأت ولا من أين أتت ؟ كل ما يمكن أن يقال عنها إنها فاتنة مستهترة عرفت كيف تشق طريقها فى عالم الغرام والمغامرة ... وماذا يعنينا من أمرها ... يقال إن اسمها الحقيقى حينما كانت فتاة (وقد ظلت فتاة بالاسم فقط أما الحقيقة فكانت عكس هذا) كان اسمها « أوكتاڤى بارادان » ثم تفرع منه بعد ذلك « أوباردى » .

ومع ذلك فهى امرأة لطيفة . ومن أول مرة ، بل من أول نظرة ، ستصبح أنت بكل تأكيد صاحبها وعشيقها . وستأسرها بقامتك وقوامك وقوتك وفتوتك . أيدخل « هرقل » إله القوة عند « مسالين » ربة الفحش والرذيلة وتمر المسألة بسلام ؟ بل لا بد ياصاح من أن تحدث أمور وأمور . أليس كذلك يا إله القوة ، يازير النساء ؟

لكن دعنى أقول إنه إذا كان الدخول فى المحال العامة مباحاً لا يلزم الإنسان بأن يشترى كل شىء أو أى شىء يقع نظره عليه ، فإن بيت هذه السيدة لايفترق عن هذه المحال فى قليل أو كثير . إن لم ترقك البضاعة فأنت حر فى الشراء . والخروج سهل ميسور ، وبنفس الطريقة التى تم الدخول بها .

فانني أن أخبرك أنها تقطن منذ ثلاث سنوات في حي « الشانزليه » . وهو — كما تعلم — حي موبوء ذو شهرة ، ومنذ ذلك الحين فتحت أبواب مسكنها واستقبلت حثالة المغامرين وسفلة الوافدين إلى باريس الذين جاءوا ليستغلوا فيها مواهبهم الإجرامية الخطرة .

لقد ذهبت إليها . . ولكن كيف ؟ هذا مالا أذكره ، ولم أعرفه بعد . قد أكون ذهبت إلى هناك كما نذهب معا الآن ، وكما ذهب ويذهب غيرنا إلى هناك تقوده أقدامه ليتمتع ويلهو ، حيث النساء في متناول اليد يرتمين في أحضان رجال خائنين ، يدعون أنهم نبلاء ذو ألقاب وثروات ، لكنهم في الواقع أدعياء لا تعترف بهم سفاراتهم . يتحدثون عن الشرف بلا داع أو سبب . ويتلمسون أوهى الفرص لينفذوا منها إلى التحدث عن آبائهم وأجدادهم . يروون أمجادهم ، ويعرضون أفعالهم ، ويقصون تاريخ حياتهم في كل مناسبة بل عند أدنى ملابسة . هواشون كذابون ، غشاشون خطرون ، مزيفون كنقودهم وأوراقهم . مخاتلون مخادعون كألقابهم . شجعان ولكن على طريقة هؤلاء اللصوص الذين يعرضون أنفسهم مرغمين للأخطار وركوب

الأهوال لا عن جرأة وشجاعة ، وإنما لأنهم مضطرون إلى ذلك . . . وإلا لما وصل إلى أيديهم شيء .

هؤلاء هم الأرستقراطيون الذين جعلوا « صالون » الماركيزة قبلتهم ، وتلك هي الأرستقراطية التي يدعونها ويتشدقون بها وينتسبون إليها ظلماً .

وبالرغم من ذلك كله فإنني أحب هذا الجو الذي يعيشون فيه ، وأهوى عالمهم . . . عالم القرصنة واللصوصية . . . إذ أنني أجد لذة لا تعادلها لذة حينما أتغلغل في نفسياتهم ، وأقف على حقائقهم ، ودخائل أنفسهم ، ويالها من تسلية حينما يصغي الإنسان إلى حديثهم اللبق المعسول !

وكثيرا ما يبدون مترفعين عن الصغائر ، مجددين مبتكرين .

نساؤهم دائماً جميلات . . فيهن شيء من الخبث واللؤم غريب عن نسائنا الفرنسيات ، مأثور معروف عن الأجنبيات . وهو على كل خبث مقبول لا تعافه بعض النفوس .

كما أن تاريخ حياتهن يحوطه الغموض ويكتنفه الخفاء ، ومن يدري فلربما يكن قد أمضين نصف أعمارهن في . . . إصلاحية أو في سجن ؟!

يتمتعن غالباً بعيون ساحرة ، وشعر قل أن تجد له نظيراً ، وملاحة تسكر ، واغراء يدفع المرء وهو راض إلى الجنون ، وفتنة لا تُدفع ولا تقاوم ، وجاذبية تسحر وتبهر . يخطفن أحياناً قلوب الرجال كما تخطف الطيور الجارحة صغار العصافير .

والماركيزة « أوباردى » واحدة من نوع هؤلاء الفاجرات الفاتنات : ناضجة لعوب ، فاتنة فاسدة ، يحس المرء وهو يحادثها — فى مجلسها الذى تظلله الرذيلة — أنه يحادث الخطيئة مجسدة أمام ناظريه .

بيتها بيت اللهو والتسلية والرقص واللعب ، بيت لا تطرق الهموم أبوابه ولا تعرف الأحزان ساحته ، بيت الوجبة الدسمة ، والخلوة الممتعة ، والمسرة والملذة .

وسأله ساخال :

— هل ربطتك بها صلة عشق فى الماضى أو الحاضر ؟

— ما عشقتها ، ولم أعشقها ، ولن أعشقها ، وما دفعنى فى الحقيقة إلى التردد على وكرها إلا غاية واحدة فقط هى . . . ابنتها .

— أعندها ابنة ؟

— نعم . عندها ابنة هى أعجوبة العصر يا صاحبى ، هى سحر وجاذبية ووداعة وصبا ، وبراءة ، وأنوثة متفتحة الأكمام ، فارعة يارعة ، هيفاء ناضجة مع أنها لم تتجاوز ربيعها الثامن عشر ، شقراء مع أن أمها خمرية اللون ، مبتهجة دائماً ، فرحة مرحة ، طروب تضحك من الأعماق ، وتنسى نفسها فى أثناء الرقص . أمامن الذى أحبها ، أو من هو الذى سيحظى بحبها ؟ فهذا ما لم يعرفه أحد بعد . إننا عشرة رجال ننتظر .. ونأمل .. ونطمع فيها . إن مثل هذه الفتاة فى يد امرأة كالماركيزة تعد لقطة وثروة من دون شك . وربما كانت الأم وابنتها تنتظران سيداً ثمينا . . . أثمن منى ! لكنى أؤكد لك أن أية فرصة تسنح لى سأنتهزها إذا ما صادفتنى ، لأقتنص هذه الفتاة الفاتنة التى حيرتنى بغموضها وتقلبها . فإذا هى لم تكن ماكرة شريرة كبنات وسطها الذى تعيش فيه فهى بكل تأكيد على جانب كبير من البراءة وصفاء القلب ، بل إنها تكون النموذج الرائع والمثل الأعلى الحى للفتيات الفاضلات .

إنها ثمرة جميلة فى حديقة خربة ، وزهرة يديعة ترعرعت وسط الدمن والأوساخ . ونبات مزهر عطر الرائحة ، خلاب اللون

يستمد غذاءه من قاذورات . قد تكون سليلة رجل من عائلة راقية ، وقد تكون ابنـــة أحد العظماء الأسياد ، أو الفنانين المشهورين . ومن غير المستبعد أن يكون قد أنجبها أحد الأمراء الذين سعدت به أحضان أمها فى ليلة باركها الشيطان وأحيتها الخطيئة . لا يستطيع أحد أن يتكهن عنها بشىء ، غير أنك ...

فقاطعه ساڤال وهو يضحك ويقول :

— لا أبعد عن الصواب إذا ما اتهمتك بأنك غارق فى حبها لناصيتك .

— إن كل ما فى الأمر أننى أطمع فيها . وفرق بين العشق والطمع . ولست بدعا فى هذا . فهناك ـ كما أخبرتك ـ كثيرون غيرى ينافسوننى فى هذا ، وسأقدمهم لك هناك . غير أننى أحس بأنى سوف أنتصر عليهم ، وأفوز بها دونهم بفضل ما تحصنى به الماركيزة وابنتها من سابغ الرضا وحسن الرعاية والاهتمام .

فكرر « ساڤال » :

— إنك لمغرم بها ، وأقسم على ذلك بكل مغلظة من الأيمان .

— لا .. لا .. بل هى تضايقنى وتغريني ، تجذبنى وتخيفنى .

إننى أحترس منها كما يحترس الطائر من الفخ . ومع ذلك أرغب فيها كما يرغب الصادى فى الماء العذب . إذا افترقت عنها قاسيت ألم البعد وكابدت مرارة الفراق ، إلا أننى أقترب منها بخوف وحذر ، كما يقترب الإنسان من لص ماهر .

أشعر وأنا بجوارها باندفاع نحو سذاجتها المحتملة ، غير أننى سرعان ما أتراجع خشية مكرها الذى قد يكون كامناً وراء قناع من سذاجة وصفاء .

أحس ، وأنا بقربها ، أننى بجوار شخصية شاذة خرجت على القواعد الطبيعية والأمور المألوفة ، شخصية لست أدرى أمكروهة هى أم محبوبة ؟

وقال ساڤال المرة الثالثة :

— إننى أؤكد لك أنك تحبها ؛ ها أنت ذا تتحدث عنها بأسلوب شاعرى كأسلوب العشاق الواهمين . وإن لم تصدقنى فسل قلبك ينبئك بالحقيقة . وسار مرفينيه عدة خطوات صامتا ثم أجاب :

— جائز .. فهى قد شغلتنى كثيراً ، وفكرت فيها كثيراً بل أكثر من اللازم ، فكرت فيها فى نومى وصحوى ...

وفكرت فيها رغماً عني . فإن كانت هذه هي أعراض مرض العشق فقد تمكن هذا الداء إذاً في قلبي .

صورتها تتبعني وتلازمني ، بل تتمثلني وتطاردني في كل مكان وبدون انقطاع . فداعاً أجدها أمامي ومن حولي . . . وفي نفسي .

فهل هذا هو الحب ؟ وهل هذه هي العاطفة التي تسيطر على الروح والجسد ؟ محياها سحر بصري وسبا بصيرتي ، وانطبع في نفسي ، فلا أفتح عيني أو أغمضها إلا على طيفها ورسمها .

وإذا ما رأيتها بعين الحقيقة أحسست بضربات قلبي تتلاحق وتزداد رغماً عني !! إذا ما سلمت بذلك كله فهل أكون قد سلمت بحبها وهواها ... ؟

أشتهيها ، ولكن فكرة اتخاذها زوجة لي ترعبني ، وتبدو لي فكرة جنونية فيها مخاطرة وغباوة ، فإني متخوف منها بعض الشيء كما يتخوف العصفور من صقر جارح يحوم عليه .

ولكني غيور عليها ، وأغار من كل ما تكنه في قلبها من أمور بيني وبينها حجاب ، وأسائل نفسي داعاً : « أهي صبية فاتنة أم فاجرة خبيثة ؟ » .

إنها تتلفظ أحياناً بألفاظ تسبب الرجفة والارتعاد ، فلا أستطيع أن أحكم : هل هي تفقه معانيها وتعي مدلولاتها ؟ أم ترددها كما ترد الببغاء ما تسمع . وأوقاتاً أراها غافلة تجعلني أظن أن براءتها لم تتلوث أو تتدنس . وأوقاتاً أخرى تظهر متغافلة ، ساذجة سذاجة مصطنعة تجعلني أرتاب في طهارتها ، تهيجني وتثيرني كالداعرة . وفي نفس الوقت تحرص على نفسها كما تحرص العذراء الطاهرة على بكارتها وعفتها .

يبدو عليها أنها تحبني ، ومع ذلك فهي تسخر مني !!

تظهر أمام الناس بمظهر المدلهة بحبي فيعتقد الكل أنها عشيقتي ، ولكنها تعاملني إذا ما انفردنا وكأني شقيقها أو خادمها .

أحياناً أتخيل أن عدد عشاقها يربو على عدد عشاق أمها ، وأحياناً أتصور أنها لا تعرف شيئاً عن الحياة ... أي شيء !!

ومع هذا فهي قارئة نهمة شغوفة بمطالعة القصص والروايات . لم تظهر قصة إلا وقرأتها .

وأنا الآن في نظرها — إلى أن تأتيني رتبة أخرى أعلا من هذه — « مجهز كتب » لذلك تطلق على لقب « أمين المكتبة » .

وكل أسبوع تبعث لها « المكتبة الجديدة » نيابة عنى بكل ما تخرجه المطابع من كتب حديثة . وأنا أعتقد أنها تقرأ جميع هذه الكتب بلا ترتيب أو نظام مما يجعل تفكيرها مهوشا مشوشا كقراءتها .

ومن الجائز أن يكون هذا الخليط من القراءات ، وهذه المطالعات المختلطة المختلفة هى التى سببت لها غرابة فى مسلكها وشذوذاً فى تصرفاتها .

فحينما ينظر الإنسان إلى الحياة من خلال صفحات خمس عشرة ألف رواية وكتاب لابد أن يجد الحياة غريبة عليه مخالفة لما قرأ ، وتكون نظرته إلى العالم والموجودات نظرة بعيدة عن الحقيقة والواقع .

ومما يمكن فى المؤكد أن هذه الرغبة التى أحس بها الآن تجاه « إيفت » ما أحسست بها من قبل تجاه أية امرأة أخرى .. ومن المؤكد أننى لن أتزوجها . فمصارى الأمر أنها إن كانت قد أحبت من قبل فإنى سأضيف بدورى رقماً جديداً إلى عدد عشاقها الماضين .

أما إذا كانت صفحة غرامها نقية بيضاء فيكفينى ، بل

يسعدنى أن أكون صاحب الرقم الأول فى هذه الصفحة .

وعلى كل فالأمر سهل هين ؛ لأنها لن تتزوج ، وبكل تأكيد لن تتزوج ، بل ستظل كما هى . فمن يقترن بابنة الماركيزة « أوباردى » ، أو بالأحرى « أو كتافى بارادان » ؟ لا أحد !! لا أحد !! لثلاث من الأسباب التى لا تخفى على أحد . من أين ستحصل على زوج إذاً ؟

أمن الوسط الراقى ؟ محال !! فلن يدخل واحد من الطبقة العالية منزل مدام « أوباردى » المفتوح للعامة ليطلب يد الابنة التى لا تتعدى وظيفتها فى هذا الوكر سوى إغراء الحرفاء وطلاب المتعة المدنسة .

أم من الطبقة المتوسطة ؟ وهذا مستحيل ؛ لأن الماركيزة بعيدة النظر ، لا تعقد صفقة تكون هى الخاسرة فيها ، فهى لن تعطى ابنتها إلا لرجل ثرى ذى مكانة عالية . ورجل هذا شأنه لن تعثر عليه لابنتها إلا فى عالم الخيال . لم يبق إذاً إلا رجال الطبقة الدنيا ، وهؤلاء لهم آراؤهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ونظرياتهم التى تحول بينهم وبين الاقتران بأية فتاة من طراز فتاتنا هذه .

فطريق الزواج أمامها شاق شائك ، وعر غير ممهد ، إن لم يكن ضرباً من الخيال والأوهام .

لذلك لن تستطيع إيفت أن تنتسب إلى أية طبقة من هذه الطبقات عن طريق الزواج .

بل من أجل أمها وأصلها ، وثقافتها ووراثتها ، وعاداتها وتصرفاتها ستكون ملكا لطائفة معينة ، طائفة « البغاة الداعرين » . إنها وقف على هذه الطائفة ، ولن تستطيع منها فكاكا أو فراراً إلا إذا غدت راهبة فى أحد الأديرة ، وقلما يكون هذا ؛ لأن تصرفاتها وتربيتها لا يتفقان مع الحياة الدينية .

فليس أمامها إلا مهنة واحدة ممكنة : مهنة « الحب » .

إنها ستتخذ العشق وظيفة وحرفة إن لم تكن قد اتخذته ، وشرعت فيه ومرنت على طرقه وحيله منذ حين .

هكذا قدرلها وكتب عليها ، ولامفر من القدر والمكتوب .

وكل ما قد يحدث من تغيير فى أمرها هو أنها ستتحول من فتاة عذراء إلى فتاة فقط ! ! وكم أود أن أصبح السبب فى هذا التغيير ! !

ولست بدعا فى مأربى هذا ، فهناك — كما أخبرتك — كثيرون غيرى ينافسوننى ويتمنون أن يكون لهم شرف السبق . ستراهم هناك أخلاطاً من كل قطر ، سترى شخصاً فرنسيا يدعى السيد « دى بلفيى » ، وشخصية روسية تسمى باسم الأمير « كرافالو » وآخر إيطاليا وهو الفارس « فالريالى » . هؤلاء هم الذين يضعون الخطط ، ويتخذون كافة الوسائل والمقدمات ليصلوا إلى هذه الخاتمة وذلك التغيير .

ويحوم حولها أيضاً غير هؤلاء جماعة من اللصوص المقنعين ، لصوص الأعراض ، إلا أنهم نكرات غير معروفين لم يبلغوا مبلغ الثلاثة الأول مكانة وثروة .

والأم من وراثهم جميعاً تترقب وتريد اصطياد زوج لابنتها ..

وأنا أعتقد أن أنظارها اتجهت نحوى ، واستقر عزمها على الإيقاع بى . فهى تعلم جيداً أننى غنى جداً ... أغنى من الآخرين الذين يموج بهم منزلها . ولسنا بالوجهاء الوحيدين الذين يحجون إلى وكرها ؛ بل يتردد عليه قلة ممتازة ، لها بعض الثروة والمكانة والاحترام .

أما نساء هذا البيت فقد انتقت ربته وانتخبت له أمهر

السيدات المتخصصات فى ابتزاز النقود بما برعن فيه من طرق
ووسائل ، وما يحملن من مؤهلات . من أين انتقتهن ؟ وكيف
اهتدت إليهن ؟ هذا مالم تكشف عنه الأيام بعد . إنهن عالم
آخر بجانب عالم العاهرات المحترفات .. عالم له سحره ، وشخصيته
ومميزاته .

وكأنما قد هبطت على الماركيزة فكرة رائعة وإلهام عبقرى
وبعد نظر حينما اختارت نساءها المغامرات من بين السيدات
المتحجبات اللاتى لهن بنات ، وبنات يافعات ، حتى إذا ما وقع
بصر شخص أبله على هؤلاء النسوة ومعهن بناتهن فى هذا
الوكر ظن أنه فى بيت عائلى وفى حضرة نساء شريفات .

— ٢ —

ووصل الصديقان إلى شارع « الشانزليزيه » ووصلت
قبلهما نسمة رقيقة مرت برفق بين الزهور وأوراق الشجر ، ثم
مالت بما تحمل فست القلوب ومسحت الوجوه بأناملها الندية ،
فمحت ما عليها من آثار الضيق والحرارة . وشاهدا أشباح الغادين
والرائحين تتجول تحت الأشجار فى صمت . ووقع بصرهما على أشباح
أخرى جالسة على الموائد محدثة بقعاً سوداء كثيفة فى الظلام
المخيم على الطريق ... أطياف وأشباح تتحدث وتتناجى بصوت
خافت ، وكأنها تتبادل أسراراً لم يحن الوقت لإعلانها ، أو تتداول
أحاديث عن معايب وفضائح لا تسر السمع .

وقال سرفينيه :

— إنك لن تتصور مجموعة الألقاب الغريبة التى ستقابلك
فى مسكن الماركيزة . وبهذه المناسبة عليك أن تعرف أنى

سأقدمك إليهم باسم « الكونت سافال » أسامع أنت ؟ لقب « الكونت » قبل اسمك . وللألقاب سحر فى الأفئدة ورنين فى الأسماع . فلا مندوحة لى إذاً من أن أضيف دائماً هناك لقب « الكونت » قبل أن أنطق باسمك . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن كلمة « سافال » مجردة عن كل لقب ستؤذى أسماعهم ، وستكون نغمة شاذة وسط لحن رتبهم وألقابهم .

فصاح سافال :

— إن الرتب والألقاب حملة زائفة فى مصرف الشخصية ، وبضاعة بائرة في سوق الرجولة الحقة ، وضياء يمشى بصر الغر الساذج ؛ لذلك لا أرغب ، ولو لليلة واحدة عند هؤلاء الناس ، لا أرغب فى أن أستعير من دنيا الألقاب ما يعظمنى فى عيونهم .

كلا ... كلا يا صاحبى ، فأنا لست فى حاجة إلى ذلك كله ، ناهيك بما سيقال عنى إذا ما انكشف الأمر ، واتضح الحال على حقيقته ! !

فاستغرق سرفينيه فى الضحك وقال :

— يا للبلادة والبلاهـــة ! ! إننى أدعى هناك « الدوق دى سرفينيه » ، وأنا لا أدرى كيف سميت بذلك ؟ ولا لماذا ؟

أأتسلخ إذاً عن هذا الوصف وأبعد ذلك اللقب الجديد عنى ؟ ! كلا ... كلا... إننى سأظل الدوق دى سرفينيه بدون أن أشكو أو أحتج . ولماذا الاحتجاج ، وما شعرت بضيق من هذا اللقب ؟ بل إننى بدونه سأحتقر فى هذا المكان احتقاراً يجل عن الوصف .

لكن سافال الذى لم يقتنع قال له :

— أنت سليل عائلة توارثت الألقاب منذ القدم ؛ فاللقب جدير بك ، أما أنا فسأظل الرجل الوحيد العادى ، الذى ينادى باسمه هناك مجرداً من أى لقب . واسمى فقط هو الذى سيكون وسامى ورتبتى ، ودليل ارتقائى ودرجتى ، والشارة التى بها امتاز وأتميز بها عن غيرى .

ورد سرفينيه بإصرار وصلابة :

— إن تجريدك من الألقاب فى هذا الوسط يعد غريباً بل فى منتهى الغرابة . إنك ستبدو عندئذ كخادم وسط مجموعة من الأمراء والحكام ... ، إنزل على رأيى واتركنى أقدمك على أنك حاكم « ولاية السيسى العليا » ولن يدهش أحد ؛ فالأقدار العالية ، والمراتب السنية والرتب الرفيعة شىء عادى

لديهم لا يستوجب الدهشة .

فأجاب سافال بتأكيد وقوة :

— دعنى أقل لك مرة أخرى كلا كلا ، ولن أريد ذلك مهما كان الأمر .

— كما تشاء . لكن فى الحقيقة سأكون على جانب كبير من البله إذا ما حاولت اقناعك بعد ذلك !! كما أن ما قلته لن يغنى عنك شيئا ، فسيزينوك هناك رغما عنك بلقب ، ولقب ضخم جداً ، سواء أردت أم لم ترد . . . كبعض هذه الحال التى تمنح زهوراً للسيدات اللاتى يشترين منها .

ثم استدارا على يمينهما فى شارع « دى بيرى » ، وصعدا إلى أول طابق فى مبنى جديد أنيق تاركين فى أيدى أربعة من الخدم معطفيهما وقبعتيهما . .

وملأ سمعهما همس مبهم متتابع نابع من الحجر المجاورة ، وملأت أنفهما رائحة عطور نسائية نفاذة .

واقترب منهما « تشريفاتى » عالى القامة يتقدمه كرش كالكرة المنبعجة ، وتظهر على وجهه الذى يحف به شعر أبيض علامات الجد والرزانة . وبعد أن حياهما تحية مقتضبة سأل

سرفينيه وهو يشير إلى سافال :

— أرجو أن أحظى بمعرفة اسم السيد حتى يمكننى أن أقدمه ، فأجابه سرفينيه .

— السيد سافال .

وفتح الرجل باب أول حجرة ، وصاح فى جمهورها بصوت مرتفع :

— السيد الدوق دى سرفينيه ، والسيد البارون سافال

وكانت الحجرة غاصة بسيدات يمرضن صدورهن العارية فوق أمواج من ثيابهن ، ذات الألوان الزاهية .

وما أن وقع نظر ربة البيت عليهما حتى تركت صديقات ثلاث كن يتحدثن معها ، وخفت لاستقبالهما بخطوات مهيبة ، وابتسامة عريضة على شفتيها . وكانت طويلة القامة ، ممتلئة الجسم ، ناضجة جميلة جمالاً أخاذاً . جبهتها قصيرة مغطاة بخصلة من شعرها الأسود اللامع . ولها عينان سوداوان تشعان فتنة وإغراء ، تحتهما أنف دقيق وفم مغر كأنما خلق للحديث وللقبل ، يعلو شفتها العليا زغب خفيف باهت اللون يظهر بوضوح عند ما تتحدث .

غير أن فتنتها القوية كانت تتركز فى صوتها الذى ينساب من فمها كما تنساب المياه العذبة من الينابيع والعيون الرقيقة .

صوت طبيعى حلو سلس ، يشعر المرء عند سماعه بوقع فى نفسه ولذة فى سمعه .

وتقدمت صوبهما . وسبقتها رائحة حلوة وعطر قوى مسكر يضارع إن لم يفق هذه العطور المستوردة من الهند والقارة الأمريكية . ومدت يدها لسرفينيه فقبلها ، تاركة تهوى من يدها مروحتها المعلقة فى نهاية سلسلة ذهبية قصيرة .

ومدت يدها الأخرى إلى ساقال قائلة له :

— مرحبا بك أيها البارون . إن كل أصدقاء الدوق دى سرفينيه يكونون هنا ، وكأنهم فى بيوتهم .

ثم حدقت بنظرها اللامع فى العملاق الذى قدم إليها . . .

ووفدت مجموعة أخرى فيها الكونت والماركيز والأمير .

وقالت لسرفينيه بتلطف وأنس :

— إنك ستجد ابنتى فى الصالون الآخر .

وقالت قبل أن تتركهما وتذهب لمقابلة الوافدين الجدد :

— البيت بيتكما ، وهو بما فيه ومن فيه ملك لكما .

ثم أشارت إلى ساقال بغمزة من طرف عينها كالغمزة التى تعبر بها المرأة للرجل عن إعجابها به ورغبتها فيه .

وأخذ سرفينيه ذراعه فى ذراع صديقه وقال له :

— هلم معى أولاً لأريك ما يحويه هذا المنزل ، بل هذا المتحف الذى يعرض فيه كل غريب عجيب .

إننا هنا فى هذه الحجرة التى يطلق عليها اسم « صالون النساء » ، إنها تشبه المعرض بكل ما يجمع ويضم ، أو تشبه المعبد بالأحرى ، معبداً تعبد فيه الأجساد أى أجساد تكون ، الناضجة والفجة والممتلئة والعجفاء فيه على قدم المساواة ؛ والغالية والرخيصة سيان فى القيمة والثمن ؛ والأشياء المستعملة تعادل فيه الجديدة وقد تفوقها قيمة ، ميزات ونواحى غالية قد تعطى من غير ثمن وتوهب لوجه الشيطان

وعلى يسارنا حجرة الميسر ، معبد النقود والمال ، ترى فيه العابدين وقد اتجهوا بكليتهم إلى الفناء فى إلههم ومعبودهم « الميسر » . يصلون ليلهم بنهارهم هائمين فى أوراق اللعب ، متبتلين فى معبدهم لا رنين فى أسماعهم أو يؤثر فى أفئدتهم إلا لفظتان المكسب أو الخسارة . وفى قاعة داخلية أقيم فيها معبد للبراءة ،

عند محرابه فتيات شابات ، هن نتاج هؤلاء النسوة الكاسيات العاريات .

عبادتهن : محاصرة وعناق ؛ صلاتهن : حركات رشيقات يؤدينها على أنغام الموسيقى .

وفى مقدور أى أبله راقته هذه العبادة وسحرته إحدى هؤلاء المتنسكات أن يعقد عليها أية صلة شرعية .

عقولهن مفككة كأجسادهن ، غضة لينة كأطراف صغار المهرجين الذين توارثوا هذه الحرفة عن الآباء والأجداد .

إلا أنى أراهن أروع ما فى هـــذا البيت ، بل أروع ما فى هذه « السوق » . تعال معى إلى قاعة الرقص لنشاهد أمنيات ليالينا ، وهن يؤدين طقوسهن الدينية فى معبد الرشاقة والرقص .

واخترقا الحجرة وطفق سرفينيه يوزع تحياته اللبقـــة ، وابتساماته الحلوة ذات اليمين وذات اليسار ، وبأنهم بنظرات الرجل الخبير صدور النساء اللاتى يعرفهن .

ووقفا عند باب قاعة الرقص ورأيا خمسة عشر راقصاً ، وعلى صدر كل راقص فتاة .

ودارت جموع الراقصين فى القاعة دورات سريعة على ألحان الموسيقى التى كانت تعزف إحدى الرقصات المشهورة .

وارتسمت ابتسامات على شفاه بعض الفتيات . وتخففت فتيات منهن كأمهاتهن من معظم ثيابهن ، وأظهرن للعيون بشرة ناصعة البياض . واندفعت فتاة كبيرة من نهاية الحجرة تخترق الصفوف ، وهى تصطدم بجموع الراقصين ، وترفع بيدها اليسرى ذيل ثوبها الطويل ، وجرت بخطوات سريعة كما تجرى السيدات بين الجماهير وصاحت :

— آه هذا هو ميسكاد . صباح الخير يا ميسكاد .

وظهرت على وجهها طلاقة الحياة ، وضياء السعادة ، ونور الأمل . وفوق رأسها خصلات من شعرها المائل إلى الاحمرار وقد تجمعت فى حلقات غير منتظمة .

وقد حمل هـذا الوجه المضئ والشعر المحمر المشتعل جيدٌ لين غض . وبدت الفتاة وكأنها خلقت للحركة وعدم الاستقرار ، كما خلقت أمها للحديث البارع اللبق .

وكثيراً ما كانت حركاتها طبيعية ، شريفة ، عادية ، يشعر الإنسان بهجـــة نفسية ، وسعادة جسدية حينما يراها تمشى

وتتحرك وتميل برأسها ، وترفع شعرها بكفها .

وكررت إيفت :

— مسكاد ! صباح الخير يا مسكاد !

فشد سرفينيه على يدها بقوة وكأنه يشد على يد رجل ، وقدم لها صديقه قائلا :

— آنستى إيفت ! أقدم لك صديقى البارون سافال .

وحدقت فى وجه الصديق الجديد ثم حيته قائلة :

— صباح الخير يا سيد سافال . هل تبدو كل يوم طويلا هكذا .

فأجاب سرفينيه بلهجته التى يخفى دائماً وراءها سوء ظنه :

— كلا يا مؤنستى إنه تناهى اليوم فى الطول حتى يحظى بإعجاب والدتك التى لا تهوى إلا الأحجام المرتفعة والبناء الضخم العالى .

وردت الفتاة بلهجة جادة تستثير الضحك :

— عظيم جداً ! ولكنك عند ما تأتى لأجلى فعليك أن تقلل من طولك ولو قليلا ؛ فإننى أفضل الطول المألوف المعتدل . أنظر إن طول مسكاد مناسب تماماً ، غير فارع الطول ولا فى الجسم

ثم سألت سرفينيه :

— هل تراقصنى يا مسكاد؟ هيا إذاً فقد حمى وطيس الرقص .

وبدون أن يجيب وبحركة سريعة أحاط سرفينيه خصرها بذراعه ودخلا فى غمار الراقصين . . ثم اختفيا فى طيات العاصفة الراقصة بحركات سريعة فاقت حركات الآخرين الذين بدأوا يتوقفون عن الرقص قليلا قليلاً . وسرت بهما النشوة إلى أجواء جعلتهما ينسيان مرغمين كل شىء حولهما ، ولا يدريان أين يوجدان ولا ماذا يصنعان ؟ ... حتى ابتعدا عن حلبة الرقص ... وبعد هنيهة لم يكن فى الحلبة سواهما . ولكن ذلك لم يحل بين العازفين والاستمرار فى عزفهم . وكان من الطبيعى أن تتجه الأنظار نحو هذين الرفيقين المحمومين . ولما توقفا عن الرقص ، والتهبت أكف النظارة من التصفيق لهما ، صعد الدم إلى وجنتيها فألهبهما ، وشع من عينيها بريق فيه كثير من الخجل والحياء .

وبدا سرفينيه متر نحاً من فرط النشوة التى لم يفق منها بعد ، ونتيجة لما بذل من مجهود خلال رقصته مع صاحبته . وكاد يتداعى لولا أن أستند على باب المرقص .

ولما استرد أنفاسه ، واستقام عوده ، وارتد إليه شىء من

قوته قالت له إيفت :

— مسكاد . إنك لمسكين يا عزيزى ! ! إننى إذاً لأشد منك قوة ، وأكثر تحملاً ، وأصلب عوداً .

وكان رده ابتسامة أعقبتها ضحكة عصبية منه .

وظلت إيفت واقفة أمامه ؛ فأثارته بصدرها الناهد العارى الذى أخذ يعلو وينخفض تبعاً لارتفاع أنفاسها وانخفاضها . وكاد يلتهمها بنظرات تكمن الشهوة الحيوانية وراءها ، كما تكمن فى تجاعيد شفتيه المرتعشتين .

ولما التقت عيناها قالت له : إنك تبدو فى بعض الأحايين كالقط الوحشى الذى يتحفز ليثب على الآمنين .

ثم تأبطت ذراعه وهى تقول : هلم بنا لننصرف ، حتى نتمكن من لقيا صديقك سافال . فأذعن لرغبتها دون جدل ، وعبرا الردهة الكبرى .

ولم يكن سافال فى ذلك الحين وحيداً ؛ بل كانت الماركيزة أوباردى قد لحقت به ، وتحدثت وإياه وتطرق بهما الحديث إلى مختلف الأمور العامة والأحداث العالمية .

ونفذت فى أثناء محادثتها له إلى أعماق تفكيره بصوتها

الساحر ، ونظراتها التى ركزتها فى عينيه .

وبدا عليها أنها تقصد معنى آخر خاصاً من كلامها هذا الذى كان ظاهره حديثاً وباطنه مناجاة ! !

وقطع قدوم سرڤينيه عليهما هـــذه الخلوة فتغير وجهها وتكلفت الابتسام ثم قالت :

— هل تعرف ياعزيزى الدوق أننى قد استأجرت «ڤيلا» فى ضاحية « بوجيفال » ؛ لأقضى فيها شهرين للراحـــة والاستجمام ، وأنا أطمع فى زيارة منك هناك تصحب فيها معك صديقنا الصدوق سافال . ولما كنت سأنتقل إليها فى خلال هذا الأسبوع فإنه يسرنى أن تحضرا مساء السبت القادم ، لتقضى هذه الأمسية مع سحابة اليوم التالى فى تلك الڤيلا الجديدة الجميلة ، حيث تضفى علينا الطبيعة هناك كثيراً من فتنتها وجمالها وروعتها وجلالها . وقبل أن يجيب سرڤينيه هذا الرجاء التفت نحو إيفت فابتسمت فى هدوء وصفاء وقالت فى إصرار لايسمح لأحد بالتردد .

— بكل تأكيد سيحضر « مسكاد » ليتناول معنا العشاء فى أمسية السبت الآتى ، فلادا عى إذاً للالحاف فى الطلب ، والإلحاح فى الدعوة ، لا سيما وأننا سنتحرر هناك من كل قيد ، وسنترك

متاعبنا وننسى كل شيء إلا اللهو والمرح .

وظن سرفينيه أنها تخفى وراء غرضها هذا غرضاً آخر ، قد يكون وعداً بلقاء ، أو دعوة إلى خلوة . وقوى هذا الظن لديه الابتسامة العريضة المرتسمة على شفتى صاحبته . ثم التفتت الماركيزة إلى سافال وقالت وهى تفرق عينيها الجميلتين فى عينيه :

— وأنت أيضاً أيها البارون ؟

فأومأ برأسه موافقاً ، وأردف : إننى أكون سعيدا جداً يا سيدتى .

وتساءلت إيفت تساؤلا هو مزيج من اللؤم والسذاجة ، وخليط من الخبث وسلامة الطوية .

— سنذهب ، لنغيظ جماعة بعينها من الناس ، ونتسبب فى التنغيص عليها ، فضلا عن مضايقة الفرقة العسكرية . أليس كذلك يا مسكاد ؟

وأشارت من طرف عينها إلى جماعة كانت تلاحظ إيفت من بعيد فأجاب سرفينيه :

— الرأى ما ترينه يا آنستى .

وكان إذا حادثها خاطبها بلفظة « آنستى » . أما هى فكانت

تطلق عليه اسم « مسكاد » . وسألها سافال :

— لماذا تنادين دائماً صديقى سرفينيه باسم مسكاد ؟

فأجابت بسذاجة : لأنه دائماً يفلت من يدي ؛ فهو كالثلج لن تستطيع أن تبقيه بين يديك ، أو كالزئبق الرجراج لن يمكّن أحداً من الضغط عليه . وأسرعت الماركيزة تقول من غير أن تحول عينيها عن سافال :

— يا لها من طفلين مستهترين ! !

فظهر الغضب بوضوح على محيّا إيفت وردّت :

— إننى لست مستهترة ولامهرجة . إنما أنا صريحة ؛ بدليل أننى أقرر وأعلن أن مسكاد يعجبنى غير أنه يتركنى دائماً . وهذا مما يسبب لى كثيراً من الضيق ! !

فانحنى سرفينيه إكباراً إزاء هذه الصراحة وذلك الوضوح ، ثم أردف :

— إننى لن أتركك بعد اليوم يا آنستى وسألازمك ليل نهار .

فمرت جسدها هزة من جرّاء تصريحه ذاك ، وقالت :

— إن كانت هـــذه الملازمة مستساغة ومقبولة بالنهار

فكيف تكون بالليل ؟ إنك إذاً تكون أداة ضيق وإرهاق لى !

فتساءل فى جرأة ومجون : وكيف ؟

فأجابت فى شجاعة هادئة : لأنك تكون فى ملابس الليل أقل جمالا وبهاء فى عينى . أما النهار فإنه يضفى عليك كثيراً من ضيائه وروائه .

فصاحت الماركيزة : لقد قلتما شيئاً نكراً . وأعتقد أن البراءة ليس لها نصيب فى مناقشتكما هذه . فرد سرفينيه بلهجة ساخرة :

— وأنى أوافقك على رأيك ياسيدتى ؛ لأنه رأيى .

وأسرعت إيفت تدافع عن كرامتها المهدرة ، وكبريائها المجروح وصرخت :

— إنك ارتكبت الآن جريمة ؛ فألفاظك جافة ، وتعبيرك قاس . وقد اعترتك الخشونة فى التعبير منذ وقت غير طويل

ثم أدارت رأسها والتفتت إلى فرقتها ونادت فارسها قائلة .

— أيها الفارس المغوار دافع عنى فقد أهنت ، واستمت فى الدفاع حتى ترد لى اعتبارى .

فلبى نداءها واقترب منها رجل نحيل الجسم أسمر الوجه بطىء الحركة ، وقال فى ابتسامة متكلفة :

— وأين المعتدى المذنب ؟

فأشارت برأسها إلى سرفينيه وصاحت : هـــذا هو . . ولكنه وإن كان مذنباً فى حقى إلا أنه أحب الناس إلى قلبى ، ومهما ارتكب فإننى أحبه أكثر منكم جميعاً

— ولكنه يضايقك ياسيدتى !!

— إن مضايقاته لى أقل من مضايقاتكم لى .

فانحنى الفارس فالريالى وهو يقول :

— إن كان يفوقنا فى صفات محمودة إلا أننا نتساوى معه فى الإخلاص لك ، كما نبذل كل ما فى طاقتنا من أجلك .

وسرعان ما تقدّم من فرقتها رجل آخر يتقدمه كرش ضخم مستدير ، تعلوه قامة طويلة منتصبة ، يزين وجهه شارب رمادى اللون ، وصاح فى قوة مؤيدا مقالة الفارس :

— سيدتى إيفت أنا خادمك وتحت أمرك .

— حسنا ياسيد « دى بلفيى »

ثم التفتت إلى ساقال وقدمته له قائلة :

— السيد دى بلفيى الذى أبدى رغبة فى الزواج منى ، وهو — كما ترى — غنىّ عن الوصف ؛ فهو ضخم طويل يمتاز بالغنى

والسذاجة والغباء ، ومن كانت هذه صفاته ومميزاته فهو خليق بأن يجعلني أميل إليه وأغرم به . لكن يبدو لي إنك أطول منه وأضخم ، ومن أجل ذلك لا أدري أي اسم أطلقه عليك ! ! حسنا ، هل تعرف شيئاً عن العملاق « رود » ؟ بكل تأكيد إن لم تكن ابنه فأنت من نسله وسلالته ، وسأدعوك منذ الآن بـ « ابن رود » ، ثم وجهت حديثها إليه وإلى دي بلفيني معا :

— يخيل إليّ أنكما تستمتعان بأحاديث طليّة شائقة من فوق رءوس الآخرين الذين يبدون كالأقزام بالنسبة لكما .

وقامت مسرعة نحو الفرقة الموسيقية ترجو أفرادها أن يعزفوا لها الرقصة المعروفة باسم « الرقصة الرباعية »

وكانت مدام أوباردي تكاد لا ترى شيئاً مما يدور حولها ، ومالت نحو مرفينيه وهمست :

— أنت دائماً تسبب مضايقات لوحيدتي إيفت ، ولذلك فستكون أمامها المثل الحي للأخلاق المذمومة ، والسجايا المستهجنة ، والنموذج للرذائل والنقائص ! !

— إنك لم تعطها إذاً حقها من رعايتك وتربيتك إلى الآن ؟

ولكن يبدو أنها لم تدرك سخريته اللاذعة وإجابته القاسية

القارصة ؛ بدليل أن الابتسامة لم تمت على شفتيها عقب هذا التهكم المرير .

ولاحظت سيداً مقبلا نحوها في عظمة وتيه وزهو ، وقد شمخ بصدره المحلى بعدّة أوسمة ، فخفّت لاستقباله ، وجرت للقائه ، وهي تقول :

— أيها الأمير إن لقياك تسعدني وتزيدني شرفا .

ولم يسع مرفينيه آنئذ إلا أن يجذب ذراع ساقال إلى ذراعه ويعلّق على قدوم هذا الأمير بقوله : أليس عجيباً أن يطمع البرنس « كرافالو » في كسب صداقة هذه السيدة ؟ ! ألست معي في أنها تفيض أنوثة وفتنة ، وبهاء ونضارة ؟ !

— إنها لا تقل عن ابنتها جمالا وروعة ؛ وأصدقك القول إذا ما أخبرتك بأن الأم وابنتها في نظري على قدم المساواة جاذبية وشبابا وحيوية وإغراء . ألست معي مرة أخرى في أن صداقة الأم تعد بالنسبة لي مغنما ؟

فوافق مرفينيه على هذا القول بإحناءة خفيفة من رأسه وقال :

— إنها ولا ريب ترحّب ؛ بل تأمل وترجو صداقتك

وتتمنى دوامها واستمرارها .

وفى هذه الأثناء أخذ الراقصون أهبتهم لأداء « الرقصة الرباعية »، وانتظموا صفين متقابلين وجهاً لوجه، وقال سرڤينيه :

— هلم معى يا ساڤال لنترك هؤلاء ، ونشاهد ما يدور فى الغرفة المجاورة .

ودلفا إلى حجرة اللعب . وكان حول كل منضدة فيها حلقة من الرجال ينظرون إلى اللعب باهتمام ويغمغمون ببضع كلمات ، وأحياناً كان الهدوء ينشر لواءه على اللاعبين ، وأحياناً كانت تسرى ضوضاء خافتة فتعم الحجرة جميعها ، وأحياناً أخرى كانت النقود تأبى إلا أن تقول كلمتها وسط هذا الجمع الصاخب وتشارك صوت اللاعبين بصوتها الرنان ، بيد أن صوتها غالبا ما كان يضيع فى غمار ضجيج المجتمعين وعجيجهم .

ومما استرعى الانتباه أن صدور هؤلاء الرجال كانت مزينة بأوسمة متباينة متعددة ، محوطة بشرائط غريبة غير عادية . ومما استلفت النظر كذلك اختلاف سحنهم واتحاد حركاتهم وتصرفاتهم .

وإذا كان المؤتمر الذى يضم مندوبى أكثر من دولة واحدة يلاحظ فيه تغاير فى الوجوه ، واختلاف فى السحن ، وتباين

فى الأجسام والأشكال ؛ كذلك كان يرى فى هذه الغرفة أفراد لا يعرفون إلا بخصائصهم ومميزاتهم . فالأمريكى منتصب القامة ، صلب التركيب متين البناء كتلة الحديد الذى بأسفل حذائه ، والإنجليزى يمتاز بكبريائه ، يهدهد مروحة من الشعر على صدره فى زهو وعظمة . أما الأسبانى فيعرف لأول وهلة بعباءته السوداء التى تصل إلى عينيه . والرومانى يفترق عن غيره بشارب ضخم كهذا الشارب الذى أهداه فيكتور عمانويل إلى إيطاليا . أما هذا الذى يبدو بذقن حليق ، وشعر كث فى عارضيه فإنه ألمانى لا محالة . أما القائد الرومى فقد سلخت شفته العليا بسيفين من الشعر المبروم ، وامتاز الفرنسيون بالشارب المستقيم الذى يكشف عما يتمتع به حلاقو فرنسا من ذوق رائع

وسأل سرڤينيه صاحبه — أليك رغبة فى اللعب الآن ؟

— لا . وأنت ؟

— شعورى هو شعورك .

— ألا ترى أن نغادر هذا المكان الآن ثم نرجع فى يوم يكون أهدأ من هذا وأجل ؛ إذ أن تشويش القوم وضجيجهم سيحول بيننا وبين عمل أى شىء ؟

— هيا بنا .
واختفيا وراء باب كبير قادهما إلى دهليز صغير انتهى بهما إلى الطريق . وبينما هما يسيران سأل سرفينيه زميله :
— ما رأيك فيما شاهدت ، وما مر على ناظريك من مناظر منذ قليل ؟!
— إنها مناظر مسلية حقاً ؛ لولا أنني أفضل مجاورة النساء على الرجال ، وأحب هذه المجتمعات التي تضم بين دفتيها عدداً من النساء ؛ فإنهن ينشرن البهجة ، وينثرن الظرف والنشوة ، ويبثثن المرح والطرب فيما حولهن . أما هذه المجتمعات التي لا تزينها باقات من النساء فهي مجتمعات صماء جافة لا روح فيها ولا حياة .
— إن النساء خلقن لا لتسليتنا فحسب ؛ بل ليكملن ركناً له خطره وأثره في كياننا وحياتنا ؛ إذ أنهن خير نوع في فصيلتنا البشرية .
ألا تدرى أن نسائم الحب تهب على المرء بمجرد قربه منهن ، كما تهب عليه الرائحة الجميلة التي تملأ خياشيمه حينما يقترب من محل حجام أو بائع عطر ؟
حقا إن الإنسان يأخذ أكثر من حقه إذا مادفع نقوده

في أي مكان تحل به المرأة . إنهن فنانات بطبيعتهن ، محبوبات ، خبيرات بأصناف الرجال .
هل أكلت مرة حلوى من أحد المخابز ؟ إن هذه الحلوى تبدو في نظرك حلوة رائعة ، ولكنها في الحقيقة لا تساوي شيئاً ؛ لأن الذي أعدها لا يعرف إلا صناعة الخبز فقط .
وهكذا شأن الحب ، فحب إمرأة عادية من عامة الناس يذكرني دائماً بهذه الحلوى التي صنعها الخباز : حب ظاهره النشوة والبهاء ، لكنه في الحقيقة والواقع ليس بشيء . في حين أن حب امرأة من مثيلات الماركيزة « أوباردي » هو العشق كل العشق ؛ لأنهن يجدن صناعة الحب كما يجدن صنع الحلوى ، وإن من يشتري شيئاً من هؤلاء الصانعات الفاتنات بأغلى ثمن لا يعد مغبوناً في الصفقة التي عقدها معهن ؛ لأنه سيبتاع المتعة والهوى والجمال والدلال .
وسأل سافال :
— وإذاً فمن العاشق الذي يعول الماركيزة ؟
فهز سرفينيه كتفيه دلالة على عدم معرفته وقال :
— أنا لا أعلم شيئاً في هذا الصدد . غير أنه من المعروف

أن عاشقها الأخير كان نائباً إنجليزياً ، ثم رجل منذ قرابة ثلاثة أشهر . أما الآن فإنها تعيش حسبما يظهر لى عيشة عادية : مرة على حساب اللعب ، وأخرى على حساب اللاعبين . وهى على كل إنسانة ذات نزعة ونزوة ، مترددة متقلبة ، تتبع أهواءها وهواها.

ولكن ألم نتفق على أننا سنذهب لتناول طعام العشاء لديها يوم السبت فى القاطعة ؟ أليس كذلك ؟ وهناك فى الريف سنكون أكثر حرية ، وسنعرف تماماً ما يدور فى رأس إيفت ، وما يكنه صدرها .

— لا رغبة لى خير من هذه ، وليس ورائى ما يشغلنى حتى يعوقنى عن هذه الزيارة .

وفى أثناء عودتهما مساء مرّا على حى « الشانزليزيه » فوجدا فتاة وفتى متلاصقين ، ممتدين على أريكة من هذه الأرائك التى تنتشر فى الحدائق ، وقد انهال الفتى على شفتى الفتاة المستسلمة يرتشف منهما بنهم ، ويهصر عودها بين ذراعيه .

وما كان من سرفينيه إلا أن همس :

— يالله من شىء تافه وهو فى نفس الوقت جسيم ! ! شىء عادى وغريب ، مفهم ومغرم ، متماثل ومتناقض . . . إنه هذا

الشىء الذى يطلقون عليه اسم « الحب » . فهذا الشخص الصعلوك الذى دفع عشرين فلساً ثمناً للقائه بهذه الفتاة وخلوته بها لن يستمتع بأكثر مما سأستمتع به فيما سأدفع فيه عشرة آلاف فرنك لأية امرأة من نساء صالون الماركيزة أوباردى ! ! ولن تكون رفيقة هذا الفتى أقل شباباً ، ولا أقل غباء من نظيرتها الأخرى . وليس بينهما أقل خلاف أو أدنى فرق ، فيما لها من بلاهة ! ! ومهما يكن من شىء فسأدفع . . . ولكن ليس المهم أن أدفع ، إنما المهم أن أكون أول عاشق يطرق حياة ابنتها العاطفية ، ومن أجل هذا وحده سأدفع عن رضا وبطيب خاطر كل ما تطلبه الماركيزة منى .

وما أن انتهى سرفينيه من حديثه حتى انتهى بهما الطريق إلى الشارع الملكى . وقبيل وصولهما إلى تقاطع الشارع الملكى بأول شارع صادفه قال سافال لصاحبه :

طابت ليلتك وإلى اللقاء .

— ٣ —

كانت « الڤيلا » التى تقطنها الماركيزة تقع وسط تل صغير يشرف على نهر السين عند انحنائه مندفعاً نحو بلدة « مارلى » .

وعلى مسافة من هذا المسكن تقع جزيرة « كرواسييه » التى تبدو دائماً كأنها كتلة من الخضرة تظللها أشجار طوال . ويُرى أيضاً من « الڤيلا » طرف طويل من نهر السين العريض ينتهى عند مقهى « جرونيير » العائم الذى يختفى جزء كبير منه وراء أوراق الأشجار .

وغدت أمسية السبت هذه من الليالى الهادئة التى تهب السعادة ، وتبعث الجمال فى قلب من يشاهدها ، حيث الهواء الساكن الرقيق الذى عجز عن تحريك الأغصان ؛ بل عن التأثير فى صفحة نهر السين الساكنة الراكدة . واختفت الشمس من قبلُ وراء الأشجار فى طريقها إلى أقطار أخرى ، وظل الطقس

معتدلاً ، والسماء صافية مشرقة ، وأحس المرء بسعادة الأرض الناعمة ، وبجمال الطبيعة الهادئة الهانئة .

وعند ما خرجت الماركيزة وضيوفها إلى المائدة التى أعدّت فى الشرفة استولى منظر الطبيعة على المشاعر ، فسحر الألباب وأخذ بمجامع القلوب ، وشعر الجميع أنهم سيتناولون طعامهم بشهية فى تلك البقعة الريفية البهيجة وبجانب هذا النهر العظيم .

وجلست مدام أوباردى بجوار ساڤال أما ايڤت فبقيت بجانب سرفينيه .

وأضحى الأربعة منفردين ، وأصبح للريف تأثيره فى نفسية المرأتين ، وبخاصة إيڤت التى امتنعت أو كادت تمتنع عن الكلام ، وبدت أشبه ما تكون بالعليلة الذابلة التى تحوطها هالة من رزانة ووقار .

ولذلك تحير ساڤال فى الحكم على شخصيتها فقال لها :

— مالك تبدين هكذا يا عزيزتى ؟ ! لقد لاحظت تغيراً محسوساً طرأ عليك منذ الأسبوع الماضى ، فأصبحتِ منذ ذلك الحين مثلاً أعلى للرزانة والثبات والتعقل .

— إنه الريف الساحر الذى صنع بى ما ترى . إننى أحس

الآن أنى إنسانة أخرى غريبة ، لها شخصية محددة المعالم واضحة ، مختلفة كل الاختلاف عن شخصيتى السابقة ، ونفسية تباين ما عرف عنى فى باريس من شخصية متناقضة ، ونفس قلقة ، متغيرة كالطقس ، متقلبة كالزمن . فيوماً أبدو كالطائشة المجنونة ، ويوما بعده كالحزينة التى يرثى لحالها . ولا أدرى السر فى ذلك !!

تأمل كيف كنت قادرة على الحزن والسرور ، وعلى السعادة والشقاء ، وعلى الألم والأمل وعلى الفرح والترح حسب الظروف التى تحيط بى . تمر على أيام أغدو فيها متوحشة لدى القوة الكامنة والقدرة الكافية على ارتكاب جرائم القتل ، قتل الإنسان القوى المسلح لا الحيوان الضعيف الأعزل ، ثم يأتى على حين آخر من الدهر أبكى خلاله من لا شىء ، وعلى لا شىء ، وتدور فى خلدى أوهام مختلفة ، ووساوس متعددة ، وفكر متباينة لا أساس لها . وعقب الاستيقاظ من النوم كل صباح أستطيع أن أحكم على الكيفية التى سأكون عليها طوال هذا اليوم من الصباح إلى المساء . وقد يتوقف هذا — إلى حد ما — على الأحلام التى تمدنا وتهيئنا لذلك ، أو على الكتب التى تؤثر فينا بقراءتها .

وكانت إيفت فى أثناء هذه المناقشة النفسية الفلسفية

ترتدى ثوبا من « الفانلا » البيضاء لف جسدها فى رقة وفتنة زادتها جمالا فوق جمال . أما الثنايا التى برزت فى صدر هذا الثوب ، فبالرغم من كثرتها ، فإنها لم تضيق الخناق على صدر إيفت الناتىء الممتلىء ؛ بل تركته يتمتع بكثير من الحرية والانطلاق .

ومن خلال «الدنتلا» التى أشبهت فقاعات الصابون ورغوته ظهر عنق إيفت وهو يتحرك حركات رقيقة أظهرت بياضه الناصع الذى بز بياض ثوبها ، والذى يخيل لمن يراه أنه جوهرة من اللحم الأبيض يحف بها حمل ثقيل من شعر ذهبى . وظل سرقينية معلقا بصره بها لا يزيحه عنها إلا قليلاً ثم قال لها :

— إنك جديرة بالعبادة هذه الليلة يا مؤنسى ، ومن أجل ذلك أرغب فى أن أراك هكذا دائماً حتى لا أنقطع عن العبادة فى محراب جمالك وبهائك .

فأجابت بخبث ظاهر معروف عنها :

— لا تظهر لى مثل هذه الآراء ؛ لأنى إذا اعتقدت صحتها، واعتنقتها على أنها آراء جدية حقيقية اليوم فستدفع أنت ثمنها غداً .

ولوحظت السعادة تبدو على محيا الماركيزة التى توشحت

— كما هى عادة الأشراف — بملابس سوداء كشفت عن قوامها المتماسك المتلىء . وفى منطقتها حزام تدلى منه أكليل من زهر القرنفل الأحمر، ثم ارتفع وربط على خصرها . واحتلت وردة حمراء مكاناً فى شعرها الأسود

ودلّت زينتها البسيطة ، غير الصارخة ، والأزهار الحمراء التى زيّنت بها رأسها وخصرها ، ونظراتها المتكسرة ، وصوتها البطىء ، وحركاتها القليلة — دلّ كل هذا على شخصيتها التى تحمل بين جنبيها نفسا حزينة تكبت آمالا ملتهبة .

وبدأ ساقال فى هذه الجلسة الشاعرية وقوراً إلى أبعد حدود الوقار ، منهمكا فى تفكير عميق ، يقبض من آن لآخر بحركة غير شعورية على لحيته المدببة ذات الشعر الأسمر التى تشبه إلى حدّ بعيد لحية هنرى الثالث . ومضت فترة من الوقت خيم السكون والسكوت خلالها على الجميع . وشق مرقينيه حجب الصمت هذه حينما صاح :

— أحياناً يكون السكوت جميلا مستساغا حينما يربط بين القلوب والأفئدة برباط التأمل والتفكر فيقرّب بعضها إلى بعض ، أليس كذلك أيتها الماركيزة ؟ فالتفتت فى بطء نحوه وأجابت :

— حقاً ، وإن من الممتع أن يفكر المرء بإبان صحته فى أشياء لطيفة محببة إلى قلبه . ورفعت نظرها الداقىء تجاه ساقال لترى أثر هذا التعليق فى نفسه .

ولم يسكن منه إلا أن صوّب لحاظه إلى لحاظها فترة تحدثا خلالها بلغة العيون . ومن تحت المائدة ضغط مرقينيه ضغطة خفيفة على قدم إيفت وقال :

— إنك ستجعلينى أعتقد من جراء استمرار وقارك وهدوئك هذا أنك ... عاشقة . فمن هو ياترى هذا السعيد المجدود الذى قدّر له أن يستحوذ على شعورك ويستولى على مهجتك ؟

هيا بنا نبحث ونستقصى إذا أردت . ولكن قبل أن نبدأ سندع جانباً فرقة المسكريين الخاملين ، ولن أذكر إلا أسماء المهمين فيهم كاسم الأمير « كرافالو » مثلا . وعندما فاه مرقينيه بهذا الاسم انتفضت إيفت كأنها تستيقظ فجأة وصاحت :

— مسكين أنت يا مسكاد !! أتفكر فى هذا الأمير الذى يحاكى هذا الرومى الذى يوجد تمثاله فى متحف الشمع نتيجة لفوزه بعدة أوسمة فى سباق عملات الحلاقة .

— سنلغى هذا الشخص ، وسنسقط اسمه من القائمة .

وإذاً أنت تفضّلين الفيكونت « بيير دى بلفيني ».

وما أن طرق سمعها اسم دى بلفيني حتى أطلقت ضحكة رنانة وهتفت :

— هل شاهدتنى مرة متشبثة بعنقه أناجيه ، وأهمس فى أذنه وأقول حبيبى بيير الصغير ، أو ألفيتنى فى وقت ما متعلقة فى رقبة ريزبنييه (وكانت مرة تسميه ريزبنييه ، وأخرى بيير ، وثالثة بيير الصغير) أو أصب فى مسمعه كلمات التدليل وعبارات الغرام المسولة ؟ .

هل سمعتنى مرة أقول له : بامعبودى « بترو » امنح رأسك الضخم لامرأتك الوفية الجميلة ؛ لتوسعها لثما وتنهال عليها تقبيلاً ؟

فصاح مرفينييه :

— لنخلع الاثنين ، ودعينامنهما . لم يبق أمامنا إلا الفارس فالريالى الذى تشيد أمك المباركيزة بذكره دائماً .

فبدت أمارات الزراية والاستخفاف على محياها وقالت فى تهكم وسخرية :

— إنه بكاء ، فاق فى بكائه « مادلين » التى أروت الصحراء من دموعها تكفيرا عن خطاياها ، وكل همه الآن أن يشيّع

جنازات المتوفين من الأرستقراطيين ، ويودعهم حتى يواريهم التراب . ولذلك يخيل إلى حينما يحدجنى بنظراته أننى فى عداد الأموات .

— دعينا من هذا الثالث إذاً ، واتركينى أقرر لك بدورى أن لديك عاطفة جارفة حيال البارون سافال الموجوده معنا هنا

— حيال السيد « ابن رود » ؟ إنه وإن كان يمتاز بقوة فائقة ومتانة فى البنية ، وطول فى القامة ، إلا أنه يخيل إلى أننى إن أحببته كنت كمن يحب قوس النصر الضخم القابع فى ميدان « الإنوال » .

— لم يبق حينئذ يا آنستى إلا أنك تعشقيننى وحدى وتهتمين بى فقط . وإذا كان الأمر كذلك لم يبق أمامى أيضا إلا أن أهنىء نفسى ، وأقدم لك شكرى و ... قلبى .

فأجابت بدلال وابتهاج :

— أحبك أنت يامسكاد !! حسنا ! ولكن لا . حقا إننى أحبك . لا لا ! لم أحبك ، ولكن اسمح لا أريد أن أخيب ظنك . وأنما أريد أن أتركك تعيش سعيدا فى هذا الأمل وذلك الحلم الرائع الخلاب . ومن الجائز أن أحبك فى المستقبل !! أما الآن

فلا ، رغماً عن كل آمالك التى تعقدها على هذه العاطفة . غير أننى أنصح لك يامسكاد بالاستمرار فى حبك وعاطفتك . ولا تستمع إلى ما يقوله محبوبك ، وثابر عليها بل تمادى فيها ، واقرن كل ذلك بالصبر والإخلاص لمن تحب ، وكن مطيعاً له معتنياً به ، خاضعاً لأقل بادرة أو إشارة تصدر عنه .

وسأرى بدورى بعد كل ذلك ما إذا كنت أملك أو أميل لك ، وأرغب فيك أم أرغب عنك ! !

— إنى أود أن أقوم لك كلّ ما تطلبينه بعد ذلك ، لا قبله .

فتساءلت فى سذجة وبراءة :

— بعد أى شىء يامسكاد ؟

— بعد أن تعترف بصدق حبك ، وقوة عاطفتك نجوى ، وخالص شعورك وإحساسك تجاهى .

— وماذا يضيرك إذا تخيلت أننى أحبك ، تخيّل ؛ ففى عالم الخيال رضاً وراحة

— لكن هذا إذا . . .

— كفى يامسكاد ، إن موضوع حديثنا لايحتمل مناقشة أكثر من هذه .

فأذعن وامتثل ، ثم حياها التحية العسكرية وأمسك عن الكلام . وبعد هنيهة اختفت الشمس وراء الجزيرة ، وألقت ، وهى تحتضر ، بأشعتها الحمراء الملتهبة على ماء البحيرة فبدت صفحتها قرمزية كلون الدماء . وصبغت انعكاسات الأفق كل شىء بصبغة خاصة ؛ فبدت المنازل والأفراد والأشياء — بدا كل هذا وقد لونته ريشة الانعكاسات باللون الأحمر الصارخ . وبدت كتلك الزهرة القرمزية التى تتوج شعر الماركيزة وكأنها قطعة من سحاب أحمر قد هبطت على رأس الماركيزة التى كانت ، فى ذلك الوقت ، تضع يدها العارية على يد ساقال بغير شعور منها

وطفقت إيفت تنظر إلى الأفق البعيد ، وتسرح طرفها فى أرجائه . وعندما انتهت من تأملاتها وتحركت عيناها فجأة صوب أمها طارت يد الماركيزة فى حركة سريعة إلى ثوبها لتصلحة عند خصرها .

فقال مرقيليه الذى لم تخف عليه هذه الحركة وما وراءها :

— هل لك يا آنستى فى أن نجول جولة فى الجزيرة بعد العشاء ؟

فاستحسنت ذلك الرأى ، وأبدت ابتهاجها من هذا العرض

وقالت :

— يالها من فكرة موفقة ! فالجزيرة هادئة فاتنة ، لاسيما إذا كنا سنروح منفردين . أليس كذلك يامسكاد ؟

— نعم منفردين يا آنستى .

ثم نشر الصمت ألويته من جديد . وغزا الهدوء الأفق فأخمد نشاط القلوب والأجسام والأصوات ، وبعث الخمول فى كل شىء حتى أن الخدم — على خلاف عادتهم — كانوا يؤدون مهمتهم فى تراخ من غير جلبة أو ضجة ، وأوشك الحريق الذى فى السماء أن ينطفىء ، وأخذ الليل يبسط أجنحته السوداء على الأرض فى تثاقل وبطء .

وسأل ساقال سيدة المنزل فقال :

— هل ستمكثين يا سيدتى كثيرا ، وتبقين طويلا فى هذه البقعة ؟

فأجابت وهى تضغط على ألفاظها :

— مادمت أشعر بالسعادة فسأبقى .

ولما استحالت الرؤية فى الظلام الدامس أحضرت المصابيح التى ألقت أشعتها الضعيفة الباهتة ، ونورها الشاحب الواهن على

طبقات الظلمة المتراكمة فخففت من حدتها . وأسرعت الفراشات تحوم حول النور ، فاحترقت وتناثرت أشلاؤها المحترقة فلأت غطاء المائدة ، ونالت الأطباق نصيباً موفوراً من هذه الأجزاء المحترقة السوداء . أما المشروبات فقد تلوثت داخل الأكواب .

وأصبحت الحركات الدائمة من استبدال المشروبات الملوثة بأخرى نظيفة ، وتغطية الأطباق والأطعمة فى حذر أصبح كل ذلك مثار تسلية ، ومبعث سرور إلى نفس إيفت . وزاد من سرورها رؤيتها لسرفينيه وهو يدفع هذه الحشرات عن طعامها ويدافع عن أكوابها . وصار يظلل رأسها بين كل لحظة وأخرى بمنشفته .

أما الماركيزة فقد ضاقت من هذا المنظر السكريه المحيط بها ، وتألمت منه ، وأثر فى أعصابها فكادت تفقد السيطرة عليها . فلا غرابة إذا ما انتهى العشاء بسرعة من أجل ذلك .

ولم تنس إيفت ماعرضه عليها صديقها فى بدء العشاء من الرغبة فى التنزه فقالت له

— فلنذهب إلى الصخرة الآن .

وبلهجة فيها شىء من برود نبهتها أمها وقالت :

— لا تمكثا هناك وقتا طويلا ، وعليكما بسرعة العودة .
وسأقوم أنا وساقال بالذهاب معكما إلى القارب .

وأخذوا أهبتهم للانصراف . وسارت كل امرأة مع صديقها .

ومشت إيڤت مع صاحبها فى المقدمة ، ومن ورائهما ساقال يمشى ملتصقا بجانب الماركيزة . وبالرغم من أن الأخيرين كانا يتحدثان بصوت خافت مريع إلا أن إيڤت سمعت الهمسات التى دارت بين أمها وساقال .

وتوغلوا فى الطريق ، وابتلعهم الظلام . وبدت الأشياء والموجودات أطيافاً وأشباحاً . أما السماء فقد تلألأت فيها النجوم الممتلئة بالضياء والنور ، وانعكست على صفحة النهر صور هذه النجوم التى أشبهت حبوباً من نيران . وكأن السماء قد بذرت نجومها وكواكبها فامتزجت بماء النهر . وسمع على طول الضفتين النقيق الموسيقى للضفادع التى توجد دائماً بجوار الأمواه . وشدت البلابل بأناشيدها العذبة الرقيقة مشاركة الهواء الهادىء رقته ولطفه . وفجأة صاحت إيڤت :

— اصغ إلى . إننى لأكاد أسمع دبيباً خلفنا . فإلى أين ذهبا ؟

وصرخت .. أماه . أماه . ولما لم يجبها إلا صدى صوتها قالت :

— إنهما لم يتمكنا من الذهاب بعيداً ، فمنذ لحظات كنت أسمع همسهما .

— ربما قررا الرجوع . وقد تكون أمك قد أحست ببرودة فى الجو فقطعا سيرهما وعادا .

وواصلت إيڤت سيرها مع الصديق . وظهرت الأنوار أمامهما على بعد تلمع وتتراقص ، وكأنما تدعوهما ليستحثا خطواتهما فينعما بسناها وضوئها هذه الأنوار المنبعثة من الفندق الذى يملكه الصياد « دى مارتينيبه » . ووقع نظرها على قارب جميل ضخم قابع وسط حشائش ضفة النهر

وسرعان ما استدعيا صاحبه . . . وبعد لحظات كان القارب يضمهما ويسير بهما متهادياً بشق صفحة الماء ، ويوقظ النجوم التى كانت تغط فى نومها فوق المياه فيبعث الحركة والاضطراب بين صفوفها

واستيقظت النجوم مذعورة فزعة ، واهتزت ، ورقصت رقصة حائرة مضطربة أخذت تهدأ قليلا قليلا وراء القارب الذى وصل بهما إلى شاطىء الجزيرة الآخر ، حيث استقبلتهما الأشجار الضخمة ، والهواء الذى قبل الأرض المبتلة فتصاعد ندياً عليلا إلى أغصان

الأشجار الكثيفة التى تحمل بلابل بقدر ماتحمل من غصون .

وحمل الهواء إلى أذنيها صوت معزف يعزف رقصة شعبية جعلت النشوة تسرى فى جسديهما ، فأرسل مرفينيه يده فى هدوء وطوّق بها وسط إيفت ، ثم ضغط على خصرها ضغطات رقيقة لذيذة ، ونظر فى عينيها وسألها بصوت حالم :

— فيم تفكرين ؟

— لا أفكر إلا فى السعادة التى تغمرنى الآن .

وهل ترجع سعادتك إلى ما تكنينه من حب لى أم للطبيعة التى تضمنا وتسحرنا ؟

— إن مرجع سعادتى لحبك يامسكاد . فأنا أحبك حباً يزداد كل يوم قوة ، وقصارى الأمر أننى أناشدك أن تتركنى هادئة نشوى فى هذه اللحظات . فالدنيا أبهى وأسمى من أن نضيعها فى الإصغاء إلى توافه والاستماع إلى أوهام ... وضمها بين ذراعيه ... وحاولت بحركات خفيفة أن تتخلص منه ، ومن وراء ثوبها الرقيق الناعم الملمس أحس مرفينيه بالدفء يسرى فى جسده ويهز كيانه فتمتم بصوت مبحوح : — ايفت .

— ها أنذى بين يديك

— إنى أحبك ، وكل جارحة تنطق بهذا الحب فىّ !

— إنك لست جاداً فى تصريحك هذا يامسكاد ! !

— كيف ذلك وقد مضى على حبى لك أمد طويل ؟ !

وبذلت مجهودا آخر للتخلص منه ، ونجحت فقط فى أن تخلّص ذراعها البض الذى كاد ينسحق بين صدريهما ، ونجح هو فى أن يبقيها بجانبه ملتصقة به . وسارا ملتصقين ، ولم يكن يعرف ماذا يقول لها ؛ إذ المناجاة والحديث الذى يوجه لفتاة عذراء فى مثل هذه المناسبات والمواقف يختلف غاية الاختلاف عن الذى يوجه إلى امرأة .

وبدا عليه الاضطراب ، وتحيّر فيما يجب أن يعمله الآن وأخذ يسائل نفسه : هل هى تحبه حقاً ؟ لكنها تتصنع بجانب الحب عدم المبالاة وقلة الاهتمام ، أم أنها لا تحبه ؟ بدليل أنها — منذ لحيظات — لم ترتض تصرفاته ووقفت منها موقفاً سلبياً ؟

وأخذ يجهد عقله ، ويستجدى تفكيره ؛ ليمنحه الكلام الناطق الحاسم الذى ينبغى له ، بل الذى يتعين عليه أن يقوله فى هذا الموقف لينفذ إلى أعماقها . وفجأة وجد شفتيه ، رغما عنه ، ومن غير تبصر ولا قصد ، تطبعان قبلة على خد إيفت المتوهج المتورد ،

فابعدت رأسها خشية أن تنهال القبلات على وجنتيها ، وبلهجة غاضبة صاحت :

-- يالك من متناقض ثقيل !! ألا تتركني أستريح في واحة الأحلام لحظات ؟! وكانت نبرات صوتها في الحقيقة تدل على غير ما تكنه في سريرتها . ولما لم يلمح على أسارير وجهها دلائل الغضب القوى والانفعال ، وألفى علامات الرضا ممزوجة بآيات الاستياء والضيق أسرع فأطبق شفتيه على عنقها الجميل الفاتن الذى طالما أشتهى عناقه منذ أمد بعيد . . . فهاج جسدها وانتفض وصدرت منها حركات قوية لتهرب منه . ولكنه كان يحتضنها بقوة ، ويضمها بشدة محمومة . ووضع يده الأخرى على كتفها ، ثم أجبرها على أن تدير رأسها نحوه ، واغتصب من فمها قبلة عميقة نهمة .

وكما يتخلص فجأة الطائر الذى لاحول له ولا حيلة من شراك صائد ، فيُسمع لقلبه وجيب سريع متلاحق ، ولريشه اهتزاز واضطراب كذلك كانت حالة إيفت حينما انساب جسدها الرقيق فجأة من بين أحضان رفيقها ، وكذلك كان صوت قلبها وحفيف ثوبها . . . وابتعدت عنه ، وأطلقت ساقيها للريح ، ومدت

يدها للظلام مستغيثة به ، فلبى نداءها ، واحتواها ، وضمها بين طياته السوداء المخيفة .

وسرعان ما استولى على صديقها العجب وغلبته الدهشة على أمره ، ووقف مكانه لايبدى حركة ؛ إذ لم يكن يتوقع أن يكون هذا موقفها منه ، فذهل من جراء هذا الاختفاء السريع . . . ولم يعد يسمع بعد هذا الاختفاء حساً أو حركة ، وبعد هنيهة نادى بصوت خافت متحشرج وهتف باسمها . . فلم يجب شيء على ندائه . . . ومضى يسير في الظلام . . وتوغل في سيره باحثاً بعينيه بين طبقات الظلمات المتراكمة عن بقعة بيضاء ، أو نقطة مضيئة علّها تكون ثوب إيفت ، ولكن كل شيء أمامه كان غارقاً في الظلمة . . . متشحاً بالسواد .

فصاح من جديد صيحة قوية : — إيفت !

ولم يحظ أيضاً هذه المرة بإجابة ، فباعد ما بين قدميه ، وحث خطاه ، وعاوده الاضطراب مرة أخرى ، فانتظر وأرهف سمعه علّ شيئاً يصكّ . بيد أن الجزيرة كانت سادرة في الصمت المخيف المطبق ، اللهم إلا من صوت أوراق الأشجار التي كانت تهتز فوق رأسه ، وتقيق الضفادع الذى كان ينبعث بعيداً من جانب الشاطىء .

ثم استأنف سيره ، إلا أنه سار فى طريقه فى هذه المرة مبتدئاً من شاطىء الجزيرة المستقيم القرب بجوار الماء الذى يخب فى جريه : ثم عاد من الشاطىء الآخر العارى من الزروع والحشائش ذى المياه الراكدة . وأخيراً تقدم تجاه « بوجيفال » ، حتى وصل إلى مشرب « الجرونيير » وصاح : أين أنت يا مؤنستى ؟ إن كل ما حدث منى لم يكن إلا مداعبة ، هيا أجبنى حتى لا تتركينى أبحث عنك هكذا بجنون وذهول .

وفى هذه المرة سمع رداً على ندائه ، صوتاً صادراً من بعد ، ولم يكن غير صوت ساعة دقّاقه أطلقت رناتها ... وعدّ دقاتها فوجد الليل قد انتصف . إذاً فقد مكث فى الجزيرة ساعتين متفقداً إيفت ، ومرت الساعتان كأنهما دقيقتان ، وحدّث نفسه قائلا :

— ربما قد تكون عادت إلى المنزل !

وأخذ يستعيد كل ما وقع حينما أخذ طريقه عائداً إلى المنزل عن طريق « القنطرة » . وعند الدهليز الموصّل إلى الباب العمومى وجد حارس المنزل نائماً على مقعده ، ولما أيقظه سرفينيه سأله : هل رجعت الآنسة إيفت إلى هنا منذ مدة ؟ فقد افترقنا فى مكان بعيد من البلدة حيث وفّيت بموعد كنت مرتبطاً به .

فأجاب الخادم :

— نعم يا سيدى فقد عادت بعد العاشرة بقليل .

واتجه صوب غرفته ، ولما أسلم عينيه للكرى استعصى النوم عليه وفر منه ، فظلت عيناه مفتوحتين ، وبقى قلقا مسهداً يزداد قلقه كلما مر على خاطره صورته وهو يختطف القبلة من شفتى فتاته وهى تقاوم وتتمنع . وطفق يسائل نفسه : ماذا ستقول عنى بعد ذلك ؟ وبماذا ستصفنى ؟ ولكن لى العذر . . فكم كانت جميلة رائعة وهى بين أحضانى ، وكم كان جسدها وقتئذ يبعث الدفء والنشوة إلى نفسى وجسمى ! أليس لى العذر حينما وجدت عاداتى ورغباتى ، والحياة الماجنة التى كنت أحياها والنساء اللاتى كنت أعيش بين أحضانهن ، والحب الذى اكتشفته وظهر لى أمره أخيراً . . . فهاجنى ذلك كله وأيقظ رغبتى أمام تلك الفتاة الطفلة الناضجة المحيرة الغريبة الذى استغلق على فكرى تفهمها . وقطعت عليه تأملاته دقات الساعة التى أعلنت الواحدة بعد منتصف الليل ثم لما أعلنت الثانية لم يكن قد نام بعد ! ! ومما زاد فى ضيقه حرارة الجو التى صببت العرق على جبينه ، وأقضّت مضجعه بسبب قسوتها التى كادت تجثم على الأنفاس ... وأحس

بدقات قلبه سريعة متلاحقة فى جبهته فنهض ليفتح النافذة . . .
ودخلت نسمة من نسمات الفجر الندية الرطبة فلفحت وجهه واستنشقها بعمق فسرى فى جسده شىء من الهدوء والانتعاش .
وأرسل طرفه ، فوجد ظلام الليل ما زال كثيفا مخيما لايتحرك ، وفجأة لحظ أمامه فى ظلام الحديقة نقطة مضيئة لامعة تشبه إلى حد بعيد قطعة صغيرة من الفحم المشتعل ، وحدق فيها بإمعان فعرف أنها سيجار فهتف فى نفسه : أقسم غير خائف أنه لم يشعلها إلا ساقل ونادى بصوت بطىء — لبون .

— هل هو أنت يا جان ؟

— نعم

— انتظرنى فسآتى إليك الآن .

وأسرع يخلع « منامته » وارتدى ملابسه ، ولحق بزميله الذى كان يدخن فى الحديقة وهو يتأرجح فى مقعده الذى يشبه حصانا من حديد . وقال سرفينيه .

— ماذا تصنع هنا وفى هذا الآونة المتأخرة ؟

— إننى أستريح وأستجم

فضحك سرفينيه ، واستغرق فى الضحك حتى بدت نواجذه

وشدّ على يد صديقه قائلا :

— لك كل تهانئى إذاً يا عزيزى ، أما أنا فالضيق يلتابنى ، والسهد يكحل عينى على عكس حالتك .

— إننى لم أفهم مقصدك بعد . فماذا تريد أن تقول ؟

أريد أن أقرر أن إيفت وأمها تختلفان تماماً ، فأمها سهلة مستسلمة ، أما الابنة فعنيدة حرون .

— إذاً قصّ علىّ ما جرى بينكما حتى أتمكن من الحكم .

وعندئذ روى له سرفينيه كل ما حدث ، وقص عليه محاولاته الفاشلة وختم بقوله :

— حقاً إن هذه الصغيرة تسبب لى كثيراً من الاضطراب والقلق : لذلك لم تستطع عيناى أن تذوقا النوم طعما إلى الآن !؟ أليس ذلك غريب ، والأغرب الأعجب أن يصدر كل ذلك من طفلة يظن أى مخلوق أنه يستطيع أن ينال منها أى شىء ، وكل شىء ، فى يسر وسهولة ، بينما هى على نقيض ذلك . إن المرأة التى عاشت وجرّبت الحياة ، وأحبت وخبرت الحب يستطيع أن يفهمها الرجل فى وضوح وسرعة . أما العذراء فعلى العكس يتخبط المجرب القطن فى كشفها وإدراك كنهها ، ومعرفة مقاصدها ومآربها . وقد

بدأت أظن أن هذه الصغيرة بدأت تسخر مني وتستهزىء بي . .

فتأرجح سافال على مقعده الذي يشبه أرجوحة الأطفال . وقال ببطء :

— خذ حذرك يا أعز صديق ؛ فإنها تقودك من حيث لا تدري إلى . . . الزواج . تذكر الشواهد التاريخية والحوادث المشابهة تجد هذه الطريقة عين الطريقة التي سارت عليها «مدموازيل دي منتيجو» التي امتازت عن سواها بعائلتها الطيبة ، وأرومتها الأصيلة ، ومحتدها النبيل .

احترس . ولا تلعب الدور الذي لعبه نابليون فانتهى به إلى ذلك القيد وهذا الرباط ، الرباط المقدس . إياك إياك حتى لا تسير على منهاجه أو تنسج على منواله . فهمس سرفينيه :

— إذا كان من أجل ذلك فلا تخش شيئاً . فإني لست ساذجاً ولا أمبراطوراً ، ولن يتزوجها إلا واحد من هذين الصنفين. ولكن دعني أتكلم في أمر هو عندي الآن أهم من ذلك كله ، تخبرني هل تشعر بنعاس أو ميل إلى النوم ؟

فلما أجاب سافال بالنفي سأله مرة ثانية :

— هل لك رغبة في أن نسير قليلا بجوار مياه النهر ؟

— بكل سرور .

واتجها في سيرهما على الشاطىء إلى بلدة «مارلي» . وكانت نزهتهما قبيل تنفس الصبح بقليل ، حيث يميل الجو إلى البرودة ، وحيث يملأ النوم العميق اللذيذ الأجفان ، وحيث الراحة والهدوء الجثماني لمن ينعم بالكرى ، وحيث تسكن الضوضاء الخفيفة التي تسبق مولد النهار ، وحيث يهدأ تغريد البلابل وتسكن موسيقى الضفادع . وكانت تعتري سرفينيه أحياناً نوبات مفاجئة من الشعر أو الفلسفة ، فقال فجأة لصاحبه حينما انتابته إحداها :

— اصغ إليّ إن إيفت ستسبب لي كثيراً من الاضطراب !!

تأمل علم الحساب تجد من مبادئه الأولية أن واحداً وواحداً يساويان اثنين . أما في الحب ، وهو علم مترامي الأطراف كما تعلم ، فكان من المعقول أن يكون واحد وواحد يساويان واحداً ! فالحبيبان روح واحدة ومشاعر ممتزجة ، وأحاسيس متفقة مرتبطة ، غير أني أجدهما بالرغم من ذلك كله يساويان اثنين !!

قد تكون هذه النتيجة مقبولة إذا أنصب حديثي على الحب المادي الحيواني الذي غايته اللذة الجسدية والمتعة البهيمية وإرضاء الغريزة ، وذلك الحب الذي يموت بموت الشهوة ، وينتهي بانتهاء

قضاء المأرب الجنسى ؛ لكننى أتحدث عن الحب الروحى المدرى المنزه عن الجسدية ، المبرّء عن الغرض والاشتهاء ، إنى أتحدث عن هذه العاطفة الشريفة والتجاوب القلبى بين فؤادين وروحين يتعذبان ليصيرا شيئاً واحداً ، وان لم يتحد الجسم .

هذا الحب الذى يكشف فيه الحبيب لمحبوبه عن دخيلة نفسه ، ومستور ضميره لينفذ المحبوب إلى وجدانه وقرارة نفسه .

ولا يخفى أن هناك علاقة على النقيض من ذلك ، لا يكاد يعرف فيها العاشق عن معشوقته شيئا مما يدور فى خلدها ، ولا يستطيع أن يكشف أو يستشف حقيقة رغباتها ، وليس فى مقدوره أن يقف على الزر اليسير من كنه أفكارها ومبتغاها ، ولا يستبين شيئا عن روحها التى يعتقد أنها قريبة جدا منه ، أو عن نفسها التى تختفى خلف عينين لامعتين كالحرز ، صافيتين كالماء ، شفافتين لا تخفيان وراءهما أسراراً . روح تخاطبه بفم جميل كأنه خلق له وحده ، إلا أنها تلقى إليه بأقل من القليل مما يطلب ؛ لأنها بعيدة عنه بعد النجوم ، كارهة لحبه مبغضة لهواه وعاطفته . ألم تمس كل ذلك أو بعضه فى علاقاتك ؟

— إننى لا أطلب كل هذا ، ولا أسعى إلى المثل العليا ؛ فأنا قانع

بحالتى ، وذلك موقنى دائما . لا أنظر ما خلف العيون بل اكتفى بما تشتمل عليه من سحر وحور .

وبعد برهة هتف سرڤينيه :

— لكن ايفت شخصية غريبة ، فكيف ستقابلنى هذا الصباح ؟ !! ولما وصلا إلى « طاحونة » مارلى لاحظا أن السماء قد عراها الشحوب ، وأن الديكة بدأت تصيح . وأخذت عصفورة صغيرة تزقزق فى حديقة صغيرة مجاورة تقع على الطريق الذى كانا يسيران فيه ، وأرسلت لحنا كله سذاجة وبساطة مضحكة .

وقال سافال :

— هيّا بنا نرجع ؛ فإن هذا هو أنسب وقت لعودتنا .

— ٤ —

لما آب سرفيليه ودخل حجرته لحظ من خلال نافذتها التى ظلت مفتوحة أن الأفق ذو لون وردى جميل فقام وأغلق رتاج النافذة وضم الستائر بعضها إلى بعض ... وأسلم عينيه للرقاد ، وبات طيلة نومه يحلم بإيفت . واستيقظ على صوت جلبة وضوضاء غريبة فقعد فى سريره ، وأنصت غير أنه لم يستبن شيئا . وفجأة سمع من خلف النافذة قعقعة تشبه قعقعة حبات البرد الذى يتساقط عندما ينهمر المطر ، فقفز من مخدعه ، واتجه مسرعا إلى النافذة ففتحها ورأى فى ممشى الحديقة المجاور لها فتاته إيفت ، وقد أخذت تحصب نافذته بحبات كبيرة من الرمال والحصى التى أصابت إحداها وجهه عندما فتح نافذته . ورأى ثوبها وردى اللون ، وقبعتها الخوصية ذات الحافة العريضة والريشة الطويلة العالية المقوسة . وقالت وهى تضحك ضحكة تتسم بالخبث واللؤم :

— هل نعمت بالنوم يا مسكاد هذه الليلة ؟ وماذا جرى حتى تصحو متأخراً هكذا ؟ ! لاريب أن المناصرات هى السبب !!

ووقف صاحبها مبهوراً من ضوء النهار ونوره القوى الذى أعشى عينيه وعمّ الحجرة كلها عندما فتح النافذة ، وبقى جسده خامدا ، ونشاطه فاترا ؛ إذ لم يأخذ حظه من النوم ، وأدهشه هدوء إيفت وسخريتها منه وأجاب :

— ها أنذا يا آنستى سأكون بجوارك بعد ثوان لاتستغرق أكثر من وضع قليل من الماء على وجهى .

— أسرع فقد أشرفت الساعة على العاشرة صباحا ، ولا تتباطأ حتى أنهى إليك فكرة عظيمة ، ومؤامرة دبرتها سننفذها سوياً ... فلا تتريث ، وبخاصة لأننا سنتناول الطعام فى تمام الساعة الحادية عشرة .

ولما وصل إليها وجدها تجلس على مقعد فى الحديقة مع كتاب أسندته إلى ركبتها ، وأخذت ذراعه فى ذراعها بدلال وحنو وكأنه لم يحدث منه بالأمس شىء يستوجب السخط والفرار ، وجذبته من ذراعه إلى طرف الحديقة وقالت :

— إليك فكرتى . إننا سنخالف ما تشير به علينا والدتى ،

وستصحبني أنت بدورك بعد قليل إلى «الجرونوبير» الذي أرغب في رؤيته بالرغم من نصيحة أمي؛ فقد قالت لي: إن المرأة الشريفة الصالحة لا تذهب إلى هذا المكان.

لكنني لا أكترث؛ فكل الأمكنة عندي سواء.

ولابد أن تصحبني أنت وتلازمني هناك؛ لنقوم بكثير من الصخب والتهريج مع أصحاب الزوارق وركابها. وعبق المكان برائحة عطرية هبت من إيفت، وأشكل عليه معرفة نوع هذا الطيب؛ إذ لم يكن عطراً من نوع العطور القوية النفاذة التي تتطيب بها الماركيزة دائماً، وتحير، ولم يدر من أين تأتي هذه الرائحة: أمن ثوبها، أم من شعرها، أم من جسدها كله؟

واعتقد أن هذه الرائحة التي يتفقد مصدرها لا وجود لها ولا أثر، وإن هي إلا خيالات خالتها عيناه المفتونتان بسحر إيفت، وشعوره المأخوذ بجمالها وأناقتها.

وقالت له وهي تقترب منه وأنفاسها الحلوة تنفذ إلى خياشيمه:

— هل اتفقنا يامسكاد؟ أم لك وجهة أخرى؟ وثق أنني على يقين من أن الطقس حينما تشتد حرارته وتلتهب أنفاسه ونسماته سيحول بين والدتي والخروج؛ فهي لا تقوى على تحمل الحرارة

فضلاً عن قسوتها، وحينئذ فستتركها مع صديقك ساؤال وستصحبني إلى هناك، وسنقول لها إننا سنذهب إلى الغابة.

هل تعلم كم ستسعدني وتسرني رؤيتي «للجرونوبير»؟.

* * *

وعندما وصلا إلى ضفة نهر السين كان شعاع من الشمس قد سقط على النهر اللامع الهادىء، ونشأ من حرارة الجو ضباب خفيف ارتفع وتصاعد من الماء، وأحدث طبقة من بخار الماء اللامع.

ومن وقت لآخر كان يمر زورق سريع السير، أو قارب ثقيل، ويسمع من بعيد صفير قصير، وطويل أحياناً، ولم يكن الصفير القصير غير صفير القطارات التي تنقل كل يوم جماعة من سكان باريس إلى الضواحي المجاورة. أما الصفير المتصل القوي فلم يكن سوى صفير البواخر الذي ينبه عمال قنطرة «مارلي» إلى اقترابها من البلدة؛

وعاد الصاحبان إلى فيلا الماركيزة في الوقت الذي كان يدق فيه، داخل هذه الفيلا، جرس صغير معلناً إبتداء الغذاء..

وتناولوا الطعام في صمت... وكانت ظهيرة من أيام شهر يوليو الحارة التي تكاد تزهق الأنفاس، وتشل الحركة والتفكير،

وعيت الكلمات على الشفاه . وتصلب الهواء ، وبدت الحركات شاقة ثقيلة ، وظهرت على وجه إيفت ، مع صمتها ، علامات الضيق والضجر وقالت :

— لن يقضى على هذا السأم ويباعد بيننا وبين هذا الضيق المخيم على الأفئدة إلا التنزه بين أرجاء الغابة ؛ فلربما نقتنص نسمات رخية هناك تحت أغصان الأشجار ، أو نمتر على رياح عليلة مريضة .

وهمست الماركيزة التى كانت هامدة منقلة الجسد : هل جننت؟ ليس فى استطاعة أحد أن يخرج فى مثل هذا الوقت القاسى المرهق !!

وهز السرور الفتاة حينما استيقنت من معارضة أمها بأنها لن تخرج وأجابت — حسناً .. سأتركك مع ساڤال كى يسليك ، ويذهب الضجر عنك : أما أنا ومسكاد فسنتسلق جوانب الجبل ، وسنجلس على الحشائش الصغيرة الخضراء لنقرأ ونستفيد .

والتفتت ناحية سرفينيه وقالت :

— ألست معى فى ذلك ؟

— أنا دائماً فى خدمتك ، وتحت تصرفك يا آنستى .

وأسرعت إيفت لتأخذ قبعتها ، فهزت الأم كتفيها وقالت متنهدة :

— حقاً إنها مجنونة !! .

ومدت الابنة يدها الغضة البضة فى تراخ ودلال إلى البارون ساڤال ، فانحنى عليها ولثمها فى خشوع وبطء وهدوء . وخرجت العذراء مع صاحبها ، وأخذا طريقهما أولاً على الشاطىء ، ثم اجتازا القنطرة ، ودخلا الجزيرة ، وجلسا بجوار المياه السريعة المتدفقة تحت شجر البان ؛ ليقطعا جانباً من الوقت قبل الذهاب إلى مقهى « الجرونوبير » وأخرجت من جيبها كتابا وقالت له وهى تضحك :

— إن مهمتك الآن أن تقرأ لى .

وقدمت له الكتاب ، وأراد أن يتهرب فقال :

— أنا !! إننى لا أعرف القراءة .

فردّت بوقار وصرامة:

— هيا إلى القراءة : فلن يجديك اعتذار أو ينفعك تخلص، إنك فى تجاهلك هذا تشبه العاشق الجميل الذى يريد أن يحصل على كل شىء من غير أن يدفع شيئا . وأظن أن ذلك هو شعارك.

فأخذ الكتاب وفتحه ، وعقلت الدهشة لسانه حينما وجد الكتاب لمؤلف انجليزى يبحث فى حياة النمل ، ويسرد قصته ..

ولما بقى صامتا فى مكانه معتقداً أنها تسخر منه ، قالت له بعد أن فقدت صبرها : عليك بالقراءة.

— هل تراهنت مع أحد على مضايقتى ؟ أم هى مجرد دعابة من دعاباتك المستملحة على أية حال .

— أبداً . لا هذا ولا ذاك ، فلقد رأيت هذا الكتاب فى إحدى المكتبات ، وقيل لى إنه خير كتاب تحدث عن النمل وحياته ، فرأيت أنه سيكون خير مسل لى فى معرفة هذه الحيوانات الصغيرة التى تأسر أنظارنا ، وهى تعدو مسرعة على الحشائش والنباتات . وأردفت بلهجة آمرة : — اقرأ .. اقرأ .

وانساب جسدها على الحشيش متمدداً وحدقت فى الحشائش بعد أن اتكأت بمرفقيها ووضعت وجهها بين راحتيها ، وأخذ هو يقرأ :

« من غير شك ، فالقرود أقرب شبها إلى الإنسان من بقية الحيوانات الأخرى ؛ نظراً للتركيب الجسمى ؛ لكن إذا نظرنا إلى طبائع النمل ، ونظامه فى مجتمعاته وتجمعاته ومنازله ومبانيه ، وعاداته التى يستأنس أو يستعبد بها حيوانات أخرى — إذا أمعنا النظر فى كل ذلك نجد أنفسنا مرغمين على الاعتراف بمطالبه

وحقوقه التى تنادى بحصوله على مكانة قريبة من مكانة الإنسان ؛ لاتحاد مقاييس الذكاء لدى النوعين » واستمر سرفينيه يقرأ بنغمة واحدة ، وينتظر من وقت لآخر متسائلا :

— ألا يكفى هذا القدر من القراءة ؟ .

فأجابت بالنفى بوساطة هزة من رأسها . وانتزعت عوداً من الحشيش الأخضر ، كانت تتجول على قمته نملة . وأخذت إيفت تلهو بهذا العود ؛ فتارة تنكسه إلى أسفل فتتدحرج النملة هابطة ، وحينما تقارب النهاية ترفع إيفت قمة العود إلى أعلا فتضطر النملة إلى الصعود .

وكانت تصغى خلال ذلك بانتباه وصمت إلى قراءة صديقها عن التفاصيل المعجبة المطربة لحياة هذه الحيوانات التى تتاهت فى الضآلة والصغر ، وللكيفية التى تبنى بها مساكنها تحت الأرض وللطريقة التى يربى بها النمل حيوانات أخرى ويغذيها ؛ ليستفيد بعد ذلك برحيقها وسوائلها التى تنزف منها كما نربى نحن البقر فى الحظائر ؛ لننتفع فيما بعد بلحمها ولبنها وعرفت كيف أن النمل يستخدم حشرات عمياء صغيرة فى تنظيف جحورة وتنظيم منازله . ويلغ بها العجب مبلغا حينما علمت أن النمل يتاجر ويقاتل ويناضل فى

ميدان الوغى وساحة الحرب ، حتى إذا ماوضعت الحرب أوزارها سـاق الفريق الفائز أمامه الأسرى الذين يقومون بخدمته ، والاعتناء به كل العناية لدرجة أن هذا الفريق المنتصر لا يستطيع بعد هذه الخدمة وتلك العناية أن يتناول طعامه بمفرده ؛ لأنه اعتمد كل الاعتماد على هؤلاء الأسرى وعلى خدماتهم .

وشيئاً فشيئاً استيقظ فى فؤاد ايفت حنان جارف وعاطفة قوية نحو هذه الحيوانات الصغيرة الذكية ، فتركت النملة تصعد على إصبعها وهى تتأملها بعين كلها شفقة وحنو . . وفى تلك اللحظة كان سرفينته يقرأ الطريقة التى تعيش بها جماعات النمل ، وكيف يلعب بعضها مع بعض فى صراع ودى وتدافع حبى متصف بالقوة متسم بالمهارة وأحست إيفت التى كانت متهللة الوجه ، متعجبة برغبة عارمة تدفعها إلى أن تميل على النملة لتقبلها ، فولت الحشرة هاربة من قبلتها ، وهامت فوق وجه إيفت التى أطلقت صرخة شقت الفضاء وكأن خطراً ماحقا يهددها . وبحركات كلها اضطراب وذعر لطمت إيفت وجهها وخديها ، حتى يبتعد عنها هذا الحيوان الضعيف المخيف !! .

وندت من رفيقها ضحكات ساخرة متتابعة ، وحمل النملة التى

انزوت بجوار شعر صاحبته ، وألقى بها جانباً ، ووضع مكانها قبلة طويلة حارة . ولم تتراجع إيفت ولم تمانع فى تقبيلها ، وأبقت جبينها ثابتا لا يتحرك ثم صاحت وهى تهم بالوقوف :

— إننى أهوى هذه الكتب العلمية وأفضلها عن القصص والروايات الأخرى ، فانهض معى إلى « الجرونوبير » الآن !

* * *

ووصلا إلى جانب مزروع من الجزيرة على هيئة حديقة ، مظلل بالشجر الطويل الضخم مجاور لنهر السين الذى ترقص فيه الزوارق على نغمات أمواجه الرقيقة الحانية . وكان ثمة لفيف من الشابات مع عشاقهن ، وارتدى بعض الشبان قميصه ووضع سترته على يده ، وزحلق قبعته إلى مؤخر رأسه ، مما يوحى بأن التعب قد نال منه .

أما الأطفال فقد ساروا خلف آبائهم الذين ارتدوا — وبخاصة النساء — أجمل الثياب . وعلى بعد من أولئكم جميعا سمعت ضوضاء مستمرة ، وصياح وصراخ ، وصخب دائم صادر من « الجرونوبير » ذلك المبنى الحبيب إلى القلوب ، فلوب أصحاب الزوارق . ثم وقعت عين إيفت وصديقها على هـــذا المبنى الذى كان عبارة عن سفينة ضخمة تقبع بجوار الشاطىء تضم خليطاً من الرجال والنساء

الذين اجتمعوا حول الموائد وشاهدا أيضا فريقا منهم يصيحون ويغنون ويصدرون صرخات نابعة من أعماق قلوبهم ، ويقفزون فى الهواء على نغم «البيانو» القديم الذى يخرج أنغاما، قد تكون فى منتهى التفاضى والتغانى والتساهل والتسامح إذا ما وصفناها بأنها أنغام موسيقية؛ فهى ليست إلا قعقعات مضطربة، واهتزازات متحشرجة تدل على مدى السنين الطوال التى عمرها ذلك «البيانو»

أما عوانس « الجروتوير » فكن ذوات شعر كستنائى ، ينشرن حولهن الفتنة والإغراء والمجون والاستهتار ، قد صبغن شفاههن بأصباغ حمراء قانية ، وسمحن لثيابهن بأن تكشف عن ظهورهن ، وتُظهر ما تحت أعناقهن ، وتناولهن من المشروبات الروحية ما ذهب بصوابهن ، وجعلهن لا يدرين بما يتفوهن به من ألفاظ وكلام داعر فاجر .

وكان بعضهن يرقص فى غير وعى أمام شبان أنصاف عراة لا يرتدون إلا لباس بحر من القطن ، أو سروالا قصيرا من التيل . وكان بعض الفتيان يلبس قبعات شبيهة بقبعات راكبى الخيول فى السباق . وانتشرت فى المكان روائح كريهة نضحت بها أجسادهم وجلودهم على أثر سخبهم وحركاتهم ، فاختلطت

بروائح المساحيق والعطور التى تجملت بها هؤلاء العوانس . وطفق الجالسون حول الموائد يبتلعون أشربة ويزدردون سوائل متباينة الألوان وقد ضجت حناجرهم بالصياح ، وهم يهتفون من غير تعقل خاضعين فى ذلك لتأثير قوى خفية ؛ تدفعهم دفعا إلى التشويش والتهريج ، وتحثهم رغبة حيوانية على أن يملأوا آذانهم وأعينهم بألوان من الفوضى والضوضاء . ومن لحظة إلى أخرى كان يقف أحد السباحين على سطح هذه الباخرة ثم يقفز فى الماء فيثير ، عند ما يمس جسده الماء ، رذاذاً من المياه يصيب أوجه وأجساد من قد يكون على مقربة منه من الشاربين الذين سرعان ما يستنكرون فعلته بصيحات متوحشة هوجاء .

وعلى سطح الماء كانت تمر بعض الزوارق السريعة الضامرة ، وتجرى مندفعة بوساطة ضربات قوية من المجاديف التى كان يلقيها فى الماء أصحاب هذه الزوارق ذوو الأيدى القوية ، والسواعد العارية التى صبغتها حرارة الشمس بلون أسود فاحم .

وكان بعض ركاب تلك الزوارق من السيدات اللاتى يرتدين أثواباً من « الفانلا » الحمراء أو الزرقاء ، تظلل رءوسهن مظلات من لون ثيابهن ، إلا أنها تلمع لمعانا أخاذا تحت الشمس

اللاهية ، وقد اضطجعن على مقاعد الزوارق الخلفية ، فكن يظهرن وهن مستلقيات ، وكأنهن يسبحن على وجه الماء فى وضع ثابت مستقر .

ومرت بجانبهن أيضا مراكب ثقيلة محملة بالركاب والأمتعة ، وهى تشق مياه النهر فى بطء وأناة . وظهر ثم اختفى فجأة قارب كان يقوده تلميذ طفح وجهه بشراً وبهجة ، فأراد أن يلفت الأنظار إليه بحركات مفتعلة متكلفة ، فكان يجدف فى الماء بحركات أشبه ماتكون بحركات أجنحة طاحونة الهواء ، واصطدم أكثر من مرة بأكثر من قارب ، وهب أصحاب هذه القوارب يقذفون فى وجهه بأقذع الشتائم وأقبح الصفات ، ولم يبخل عليه الجالسون بسيل من السباب ، بعدأن كاد يغرق اثنين من السباحين ؛ لذلك اختفى بمثل السرعة التى ظهر بها .

ومرت هذه المناظر كلها على ناظرى الفتاة التى بدت على وجهها أمارات السرور والحبور ، وألقت بنفسها فى غمار الصخب ووسط تلك الفوضى وهى تتأبط ذراع فتاها . وغمرتها سعادة لا توصف حينما انهالت عليها اللكزات لم تدر مصدرها . ونظرت إلى العوانس بهدوء ولطف ، وقالت لصاحبها وهى تشير إلى

إحداهن :

— تأمل معى بامسكاه روعة هذا الشعر المسترسل الفاتن الذى يتوج رأس هذه الفتاة .

ولبس أحد النوتية ثيابا زاهية حمراء، وقبعة ضخمة من القش فى حجم المظلة ، وعزف على « البيانو » إحـــدى الرقصات الشعبية الشائعة . وعلى حين غرة أحاطت إيفت بيدها خصر رفيقها وأخذت ترقص معه كعادتها بحركات ذاهلة سريعة ، فاسترعت انتباه الموجودين ، وفى أثناء رقصهما ظل الشاربون الواقفون إلى جانب الموائد يصحبون نغم الموسيق يدقون بأقدامهم؛ بينما أخذ آخرون يقرعون الأقداح بعضها ببعض . وبدأ العازف كمن لاعقل له ، وهو يضرب على أصابع «البيانو» العاجية بضربات من أصابعه ، ويتبعها بحركات محمومة من رأسه ، وهزات من بقية جسده .

وفجأة توقف عن العزف ، وهوى إلى الأرض . ثم بدا وهو مكفن بقبعته كالميت الذى أودى به الأرهاق وقضى عليه الإجهاد . فما كان من الحاضرين إلا أن قابلوا ذلك بموجة من الضحك والقهقهة والتصفيق . وتقدم إلى العازف أربعة من زملائه فحملوه

من يديه ورجليه تعلوه قبعته ، وتبعهم مهرّج خامس وهو يردد لحنا جنائزيا . وحمل هؤلاء الشيموز هذا الميت الحى ، وساروا به فى كل طرقات الجزيرة ، وانضم إليهم وشاركهم فى تشييع هذه الجنازة كل من قابلهم فى الطرقات من الشاربين والمتنزهين .

ونهضت إيفت ضاحكة من كل قلبها لتتكلم مع كل من يصادفها ، وأصبحت فى شبه حلم أو ذهول من جراء الحركة والفوضى والضوضاء والضجيج . وصوّب بعض الشبان إلى عينيها ومفاتن جسدها نظرات جائعة شرهة أحست بها تنفذ إلى أعماقها . وتعمد بعضهم أن يلصق بها جسده الثائر الملتهب ، أو يفحصها بعينه من رأسها لأخمص قدميها ، أو ينفث فى وجهها أنفاسه الحارة الدافئة .

وخشى مرفينيه أن تنقلب هذه المناصرات إلى مأساة .

وسارت الجنازة فى خطى سريعة ، ولم تقلق صيحات المشيعين المزعجة راحة هذا الذى لا يعى . وفجأة اتجه جمهور المشيعين نحو الشاطىء ، ووقفوا دفعة واحدة لما وصلوا إلى الجسر ، ثم هدهد الأربعة زميلهم لحظات وأرجحوه أخرى ، ثم قذفوا به فى ماء النهر . وما أن وصل ميّتنا هذا إلى قبره فأحياه ماؤه ورد إليه شعوره وإدراكه ، حتى أخذ يعطس ويشتم ، ويسب ويلعن ، ويحاول أن

يخلص نفسه من الطين الذى غرز فيه ، ولم يبذل جهدا كبيرا ليرجع إلى الشاطىء . أما قبعته فلم تأبه به ، وجرت مع التيار ، حتى عثر عليها زورق فردها إلى صاحبها . ورقصت فتاتنا من نشوتها وسرورها ، وصفقت كالأطفال بيديها وصاحت :

— سكاد ! كم أنا سعيدة بتسليتى هذه ، تأمل ما يتملكنى من فرح وما يغمرنى من حبور .

وطفق مرفينيه يتبعها بعينه فى رزانة وهدوء مشوب بشىء من الضيق والانقباض لرؤيتها راضية بهذا الوضع ، مسرورة وسط هذا المكان الموبوء . وثارت فى أعماقه غريزة من تلك الغرائز التى تكمن فى نفس الرجل المهذب الذى نشأ فى بيئة طيبة ، فتجعله يتمسك دائما — حتى فى أوقات اللهو والتسلية — بما يبعده عن الطبائع المنحطة ، والأماكن الحقيرة القذرة .

وقال لنفسه وهو مندهش إنه لا يرضى بذلك أبداً من كان من نسل طيب ، وسلالة ممتازة المكانة . »

وجاشت فى قرارته رغبة عارمة للاستهزاء بها ، نظراً لانحطاطها ، كما استهزأ بمن عرفهن من قبلها ، من النساء اللاتى هن للجميع ، واللاتى لم يرددن يد لامس !! وما كان بوسعه أن يميزها عن غيرها

من المخلوقات ذوات الشعر الأحمر التى اختلطت بهن وشاركتهن البهجة ، وصاحت كما صحن بصوت مبحوح ، وكلمات خبيثة . واندمجا وسط هذه الجماهير . وتجمعت تلك الكلمات النابية القصيرة التى تقرع الأذن وتصك السمع .

ثم انتشرت فوق رءوسهم كما ينتشر الذباب فوق القاذورات المحببة إليه ؛ كلمات فارسة مقذعة ، نبعت من هذا المكان ، ونشأت فيه ، وترعرت بين أرجائه : لذلك ألفتها آذانهم وتعودتها أسماعهم ، فلم يعد لها تأثير فى نفوسهم أو وقع على أفئدتهم ، ولم تكن لتغيظ أحداً أو تثير أى مخلوق منهم . وقالت إيفت التى لم تلحظ هذه الجمل الجارحة والشتائم المقذعة ، لسكاد :

— إن مياه النهر الغربية تناديني وتحثني على أن ألقى بجسدى بين أحضانها ، هيا معى !

وكان جوابه فى هذه المرة أيضا التسليم والاذعان ، كعادته . وفى حجرة خاصة نزع كل منها ملابسه ، واستبدل بها لباس البحر وكانت الفتاة أسبق إلى الخروج منه ، وانتظرته واقفة على الشاطىء بهجة مبتسمة ، فاستلفتت الأنظار ، والتهمتها العيون والأبصار . وسارا جنباً إلى جنب ... واستقبلت المياه الدافئة أقدامها وقد

تشابكت يسراه بيمناها ... وسبحت بسعادة وانطلاق واحتوتها لجة الماء فى حنو ودلال ، بعد أن ارتجفت فيها بغتة ولذة ... وتبعها مرفينيه فى صعوبة وجهد ... وترددت أنفاسه فى صدره بسبب ما لحقه من تعب ... ونال منه الضيق لتفوقها عليه فى العوم .

ولما هدأت حركاتها بعض الشيء استلقت على ظهرها ، وضمت ذراعيها فوق صدرها ، وفتحت عينيها . وبين المياه الصافية الشفافة شاهد مرفينيه صديقته وهى مسترخية ، فرأى جسمها الموج المتمرج ، وبان له من خلف نسيج لباس البحر الخفيف المبلل بالماء نهداها الثابتان فى قوة ونضوج ، ولمح استدارتهما ، وقمتهما البارزة . وعلت بطنها قليلا فوق سطح المياه التى غمرت فخذيها . أما قدماها الدقيقتان فلم يستطيعا صبرا على المكث بين الأمواه والأمواج . ورآها مرفينيه فى هذا الوضع .. وعلى تلك الهيئة ، فرأى الفتنة مسترخية بين أحضان النهر .. ورأى مفاتنها ، وتقاطيع جسدها تشع منها أنوثة ناضجة صارخة واغراء لا يقاوم ..

وخيل إليه — وهو الخبير ببنات حواء — أنها تعمدت أن تضع جسدها هذا الوضع : إما لتثيره ، وتغريه ، ثم تذعن له وتستسلم بعد ذلك ، وإما لتسخر منه وتلعب بعقله ؛ ليعز عليه

منالها ولتباعد ما بينها وبين رغباته . . ولم يكن فى طاقة كل هذه المياه المحيطة به أن تطفىء النار التى اشتعلت فى قلبه فبعثت الدماء حارة تغلى فى عروقه . وملكت عليه الرغبة المنتهبة أمره . ولم يفق إلا على صوت ضحكاتها فرآها ترنو إليه وتقول :

— إن فوق رقبتك رأسا تضحك الثكلى . ألم ترى المرآة ، يوما ما ، كم هى كبيرة ضخمة ؟!

وعندئذ ملكه الغيظ من سخريتها به ، واستولى عليه غضب حادّ كالذى يستولى على عاشق نبيل استهزىء به ؛ لذلك تخلى فجأة عن مطامعه وشهواته ، وثارت فى نفسه عوامل ردّت إليه إنسانيته ، ودفعته إلى الثأر والقصاص ممن أهدرت رجولته وكرامته بتهكمها فطعنها بقوله :

— إن حياة الخلاعة التى تعيشين فيها هذه اللحظة وذلك الجو الدنس المحيط بك لهو الجو الذى يليق بك وبأمثالك . وإن تلك البيئة الموبوءة ما خلقت إلا لك ، وما خلقت إلا لها . ! !

وسألته بلهجتها الساخرة :

— لم استبن مرادك ! ! فماذا تقصد ؟ .

— كفاك سخرية ، ولاتهربى من مقصدى ، فأنت تعرفين

مرادى جيداً .

— كلا ، وأقسم لك !

— يجب أن تنتهى من تمثيل هذه المسرحية المضحكة ، فهل ترغبين فى ذلك أم لا ؟

— لقد أشكلت علىّ الأمر فلم أعد أفهم شيئاً ؟

— إنك لست غبية إلى هذه الدرجة ! ! وقد سبق بالأمس أن أبنتُ لك عن مقصدى .

— بماذا أخبرتنى ؟ إننى قد نسيت ، فأعد علىّ مقالة الأمس ؟!

— مقصدى لا يعدو هاتين الكلمتين : إننى أحبك

— أنت ؟ ؟

— أى أنا . وماذا فى ذلك ؟

— يالها من أكذوبة ضخمة ! !

— كلا . وأقسم على ذلك .

— هل تستطيع أن تؤيد قسمك بالدليل وتدعمه بالبرهان ؟

— وأنا لم أطلب إلا ذلك .

— وماذلك ؟

— الدليل والبرهان .

— حسنا ! فافعل .

— إن أسلوبك الآن يعدّ جديداً على ، ولهجتك غريبة جداً فلماذا لم تقولى لى مثل ذلك بالأمس ؟

— لأنك لم تطلب منى بالأمس شيئاً ! !

— يالك من ساذجة ! ! بل يالك من ماجنة ماكرة ! !

— ثم أنى لست مسئولة عن هذا الموضوع الذى تخاطبنى فيه .

— إنها لفتنة بارعة منك ! ! ومن يكون المسئول إذن ؟

— إنها أمى ، وهل غاب عنك ذلك ؟ ! !

وبضحكة رنانة قال : والدتك ! ! كم تهزئين بى ! !

وانقلبت إليه رزينة وقورة ، ونظرت بعمق متفرّسة فى عينيه ، علّها تستشف ما وراءهما وقالت :

— إصغ إلى . إن كنت تحبنى حقيقة حبا كافياً لكى تتزوجنى ؛ فخاطب والدتى أولاً فى هذا الأمر .

فلما سمع ذلك منها اعتقد أنها تسخر منه مرة أخرى ، فثار واهتاج ، وصاح : إننى لست غبيا إلى هذا الحد ! !

— إنك غامض . ولم أعد أفهمك .

وبصوت خشن ، ولهجة شريرة ونبرات منيظة محنقة قال :

— لقد قلت لك من قبل : إنه لابد من أن تمضى حداً لهذه الهزلة المضحكة ، وتلك المسرحية التى استمرت وقتا طويلاً ، والتى تمثلين فيها دور الطفلة الصغيرة الغبية . ولكن إذا قلت لك : إن هذا الدور لايليق بك ، ولا يناسبك ؛ بل ليس فى صالحك ، فصدقينى فى ذلك إنك تعلمين جيداً أنه لايمكن أن نتزوج . بل من المحال أن نرتبط سويا بهذا الرباط المقدس . ولماذا الزواج والحب يظللنا بوارف ظلاله ؟ أليس فيه الكفاية ؟ لقد سبق أن بحت لك بما يكنه شعورى نحوك ، وألقيت على مسمعك مرارا لحن حبى ، ورتلت فى معبد هواك أنشودة غرامى . . فلا تعامليني معاملة الأبله الذى لايعى ما يقول ! !

وكانت طيلة هذه المحادثة واقفة أمامه وجهاً لوجه وهما يضربان الماء بأيديهما ضربات خفيفة ، وبقيت مبهورة مبهوتة فى الماء عدة ثوان ، بعد أن صك أذنيها ماصرح به صاحبها ، وكأنها لم تستطع أن تعى تماماً ما يعنيه بكلماته ، ثم تغير لونها ، واصطبغ بحمرة قانية بعد أن سمعه الدم سريعا فبلغ شعرها وأذنيها ، وغدا وجهها فى لون قرص الشمس عند المغيب . ومن غير أن تتلفظ أو تتفوه بكلمة اتجهت نحو الشاطىء عائمة بكل قواها ... وأسرع عائما

وراءها ليلحق بها ... وقبل أن يدركها أدركه التعب ، ونال منه الجهد فكلت قوته ... ورآها ، وهو لا يزل فى الماء ، تخرج من النهر وتلتقط رداء الحمام وتدخل إلى حجرة استبدال الملابس من غير أن تلتفت وراءها ... وما ان وصل هو إلى الشاطىء حتى حمل نفسه حملاً إلى حجرته ، وقد ذهبت به الظنون كل مذهب ، وتحير فى أمره : فلم يدر أى موقف سيتخذه بعد ذلك ، ولا ماذا سيفعل ، وتقلب عما سيقوله لها ، وساءل نفسه :

هل يتقدم لها عذره عما بدر منه ؟ أم يثبت فى موقفه ، ويصر على قوله

وبينما هو يدير فى رأسه كل هذه الاحتمالات كان قد انتهى من ارتداء ملابسه وخرج ينتظرها ... ولكن بدون جدوى ؛ فقد سبقته مسرعة إلى المنزل . وعاد وحيدا يجر قدميه ، وقد ملأه الضيق والاضطراب ، على عكس سافل الذى كان يغمره السرور وتفيض به النشوة إذ كانت الماركيزة متعلقة بذراعه ، وهما يتنزهان فى الحديقة الدائرية . ووقع نظر الماركيزة على مرقينيه فصاحت بلهجة الاستهتار التى تظاهرت بها منذ ليلة الأمس :

— ألم أقل لكما أنه كان من الواجب ألا تخرجا فى هذا

اليوم ؛ فها هى ذى إيفت عادت وعاد معها صداع عنيف نتيجة ضربة الشمس التى أصابتها . وقد ذهبت لتنام ، وصار وجهها فى لون زهر الخشخاش . إن السعال القاسى قد انتاب ابنتى المسكينة من جراء تنزهكما تحت أشعة الشمس المرهقة . وهذا من غير ريب عمل جنونى . ولا أدرى لماذا قدمتما عليه ، أنكما كفرسى رهان خفة وطيشاً ! !

* * *

وحان موعد العشاء . فلزمت إيفت حجرتها ، وأرادوا أن يرسلوا لها طعامها فى غرفتها غير أنها صاحت من وراء الباب الذى أغلقته عليها

— ليست لى رغبة فى تناول أى طعام الآن ! ! وكل ما أرجوه أن تتركونى مستريحة بعض الوقت لأسترد صحتى وأعود إلى طبيعتى . ولما أشرفت الساعة على العاشرة أخذ الصديقان أهبتهما للرحيل فى قطار العاشرة والربع مساء ، واعدين الماركيزة بأن يعودا يوم السبت القادم ... ورحلا ... وظلت الماركيزة جالسة أمام نافذتها المفتوحة ، تحلم ، وتتخيل وتسبح فى بحر من الأمانى العذبة الحلوة ... وقد امتزجت أخيلتها وآمالها بصوت

الموسيقى الذى آتى من بعيد ؛ حيث كانت تعزف الفرقة الموسيقية فى حفل الصيادين معزوفاتها الراقصة الحالمة فى سكون الليل وهدوئه . واستحوذ عليها الحب فهامت فيه ومن أجله ، وجذبها العشق كما تجذب الرغبة صاحبها إلى مايحب ويهوى . وكانت تعتريها نوبات من العواطف الغرامية المفاجئة ، تغمرها وتخضعها ، ثم تؤلمها وتجعلها حزينة ذابلة . وكلما كانت هذه العواطف قاسية اشتد عليها الوجد وبرّح بها الشجن ، وأثر فيها الجوى .

وكانت الماركيزة إحدى هؤلاء النسوة اللاتى خلقن للحب ومن أجل الحب ، خلقت لتألف وتؤلف . وتحب وتُحب ، وتعشق : وتُعشق . نشأت من أصل وضيع ، ثم ارتقى بها الحب الذى اتخذته مهنة ، دون أن تشعر أو تحس ، فأوصلها إلى الغنى العريض والثراء الفاحش . سلكت هذا المسلك بالفطرة والإلهام ، وبمهارة غريزية . ثم أخذت تقبل كل شىء تقبل النقود ، كما تقبل القُبل فى شىء من السهولة واليسر من غير أن تفرّق بينهما ؛ مستخدمة حاستها القوية فى الحب بطريقة غريزية سهلة ، تفعل كما تفعل الحيوانات التى تستخدم حاستها وغريزتها فى الحصول على قوتها وعيشها .

مر فى حياتها أشخاص عديدون . . واستقبل صدرها كثيراً

من الرجال الذين لم تشعر نحوهم بأدنى عاطفة أو بأقل احساس .. وكما يأكل المسافر فى أى مكان يحل فيه أى طعام يصادفه ليقيم أوده كذلك كانت الماركيزة تستقبل أى رجل كان أو أى إنسان يطرق الباب ... باب بيتها أو باب عاطفتها ؛ لتعيش وتحيا ... غير أن قلبها كان يثور أحياناً ، ويود أن ينهل من منهل الحب ، فتقع فى غرام قوى ، وتأسرها عاطفة جارفة تخضعها أحياناً أسابيع أو أشهر حسب مميزات عشيقها العقلية والجسدية .

وكانت لا تعرف للسعادة معنى إلا خلال هذه المدة وتلك الفترة التى يثور فيها عقلها ، ويلتهب جسدها ، وتستيقظ فيها رغباتها الجسمية . وكانت تحب من كل روحها ودمها ؛ تعشق بقوة وذهول وتفان ، تلقى بنفسها فى الغرام كما يلقى الهندى العابد بنفسه فى النهر المقدس ليجرفه ماؤه ، وتغمره أمواجه تاركا نفسه ، إذا لزم الأمر للغرق والهلكة . وكم فى كتاب حياتها من صفحات لرجال مختلفة أشكالهم ومشاربهم حلت بهم وهى ساهرة ساهدة ، وفكرت فيهم رغماً عنها ليالى وأياما طوالاً . ولئن اعترف ماضيها بهم جميعاً فإن حاضرها لا يعترف إلا بحبيب واحد استحوذ على لها ، وأسرها جسما وروحاً ، ذلك هو سافال الذى تفكر فيه دائماً ،

وتمنى نفسها دائماً بلقياه . وكثيراً ما أطبق النوم أجفانها على صورته وذكراه .

وأخرجت الماركيزة ، من صلواتها الغرامية هذه ، ضوضاءُ حدثت خلفها ، جعلتها تدير رأسها وتلتفت تجاهها ؛ ولم يحدث هذه الضجة غير ابنتها التى كانت ما زالت مرتدية ملابس النهار ، وآثار الشحوب مطبوعة على محياها ، وقد شع من لحاظها بريق كبريق عيني المتعب المجهد . واتكأت الفتاة على حافة النافذة وقالت :

— أريد أن أحدثك قليلا يا أماه .

فنظرت إليها الأم نظرة كلها دهشة ! إذ كانت تحبها حباً غريزيا ، كحب الأمهات لمن أنجبن ، وتفتخر بجمالها كما يفخر القصاص بثرائه ومكانته ومع ذلك فقد كانت الأم أيضاً جميلة جمالاً يمنع من تسرب الغيرة إلى قلبها ، إذا قدر للأمهات أن يغرن من جمال بناتهن . وبالرغم من أنها كانت لا تبالى بتنفيذ الخطط التى ترسم لها ، ولا تحقق مايطلب منها إلا أنها كانت ذكية ، لا يغيب عنها قيمة هذه الخطط وأجابت الأم :

— ها أنذى مصغية إليك يا بنيتى ، فما وراءك ؟

وحدّقت الابنة فى عينى أمها وكأنها تريد أن تعرف وقع

ما ستقوله فى نفسها .

— قد وقع منذ قليل شىء غريب غير عادى بالنسبة إلىّ

— وما هو ؟

— لقد اعترف لى مرتينيه بما يكنّه لى من حب وهيام !!

وانتظرت الماركيزة المضطربة أن تتم ابنتها حديثها ، ولما لم تتابعه سألتها :

— وكيف أفضى إليك بذلك ؟ زيديني إيضاحاً .

وقبل أن تجيب الفتاة جلست بجوار قدمى أمها فى وضع كله دلال ، وضع كانت قد اعتادت عليه من قبل حينما كانت تركن إلى أمها لتستشيرها فى أمر ، أو تفضى إليها بسر ، وأمسكت بيدى أمها وقالت مبالغة :

— إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، وفاتحنى فى أن نرتبط برباط الزواج المقدس !! فندّت تنهدة من أعماق الأم وصدرت من صدرها شهقة كلها حيرة وصاحت :

— مرتينيه !! هل أصاب عقلك مسّ من الخبل أو طائف من الجنون ؟ !

ولم تحوّل ابنتها عينيها من وجه أمها لتلاحظ تفكيرها

ودهشتها وسألتها :

— ولماذا أكون مجنونة ؟ ولم لا يتزوجني ؟ ! !

— لقد قلت شططا ، وجئت شيئاً إدّاً ، فزواج سرڤينيه منك ضرب من المحال . . وكل ما هنالك لا يعدو أنك أسأت السمع أو أخطأت الفهم ؛ فسرڤينيه واسع الثراء ، عريق الأصل ، يحول ذلك كله بينه وبين التفكير في الاقتران بك ، وهو — فضلا عن ذلك — كأشراف باريس الذين لا يتزوجون إلا إذا تقدّم بهم العمر ! !

ونهضت إيڤت ببطء وتثاقل وهي تضيف :

— لم لا يتزوجني وقد صرّح لي بحبه ؟ !

فأجابت الأم بشيء من الضيق :

— كنت إخالك واسعة الإدراك ، كبيرة العقل ، لديك خبرة واسعة ، ودراية كافية ، وتجارب في الحياة تمنعك من أن تجول كل هـــذه الأفكار في رأسك ؛ فسرڤينيه أناني ، يحب نفسه كما يحب الحياة ومظاهرها ، فلن يتزوج إذن إلا بامرأة من وسطه وبيئته ، تضارعه غنى ، ولا تقل عنه حسبا وثروة فإذا كان قد عرض عليك الزواج فإنه أنما كان يبغي من وراء ذلك

العرض . . يبغي . . .

ولم تستطع الأم أن تصرّح بظنونها وشكوكها ، فكفت عن الكلام فترة ، ثم رمقت ابنتها قائلة :

— اتركيني هادئة ، واذهبي لتستريحي .

ولما تكشفت للبنت بعض آراء أمها ووقفت على رأيها في سرڤينيه أجابت : — الرأي ما تريينه يا أماه ! !

وطبعت على جبين أمها قبلة ، واتجهت صوب الباب بخطوات هادئة ، ولما همت بمغادرة الحجرة استدعتها الأم وسألتها :

— وماذا فعلت ضربة الشمس بك ؟

— ما أنسى شيء إلا التفكير فيما كنا نتناقش فيه منذ لحظات ! !

— سنتناول موضوع هذه المناقشة بالبحث مرة أخرى ؛ وأوصيك ألا تجلسي معه منفردة بعد الآن ، وكوني متأكدة من أنه لن يتزوج منك ! ! وكل ما يريده منك هو التسلية ، وقتل الوقت معك ، ثم يعرض عنك بعد أن يعرّض سمعتك للفسخ والتشويه . أمصغية أنت إلي نصحي ؟ ؟ واستدارت إيڤت عائدة إلى حجرتها . . أما مدام « أوباردي » فقد ظلت واقفة تفكر

فى مقالة ابنتها لها ، واستعادت فى مخيلتها كيف أنها عاشت ، منذ سنوات للآن ، فى غرام هادىء وارف ، وكيف أبعدت عن قلبها وعقلها الأفكار والشواغل التى تسبب الضيق وتورث الحزن ، وكيف أنها لم تفكر فى مستقبل ابنتها خلال هذه الحقبة ، ولم تكن تريد أبداً أن ترسم فى مخيلتها الصورة التى ستصبح عليها إيفت . ولم تكن تريد أن تعدد العقبات التى ستقف فى طريق ابنتها ، أو تحدد المشاكل التى ستصادفها وتتلمس لها حلاً ومخرجاً. إنها لم تأبه بذلك كله وارجأته إلى حينه ووقت حدوثه .

وظلت تحس بإحساس المرأة الداهرة ، التى تلطخ شرفها وأسود ماضيها ، بأن ابنتها لن تستطيع الزواج برجل غنى من وسط عال وطبقة رفيعة راقية إلا إذا وقع ما لم يكن فى الحسبان كوقوع إحدى المفاجآت الغرامية التى تدفع المغمورين إلى أن يتبوأوا عروش الممالك ويقبضوا على أزمة الحكم . ولم تكن الماركيزة تعتمد على هذه المفاجآت ، أو تبنى عليها كبار الآمال ؛ كذلك لم تكن الماركيزة تهتم إلا بالأمور التى تخصها وحدها ؛ لذلك لم تهتم بمستقبل ابنتها ولم تقم بمحاولات — شأن كل أم — لتزويجها . ولماذا التفكير؟ مادامت إيفت ستسير سير أمها، وستسلك

مسلكها ؟ وستصبح غانية تتخذ من الحب مهنة وتجارة ، وستقدم جسدها على مذبح الرذيلة قرباناً للمال والجاه ... ولكن الماركيزة لم تجرؤ أن تسأل نفسها متى سيكون ذلك ؟ ولا كيف يكون ؟

فلما أخبرتها ابنتها فجأة بنبأ سرفينيه معها أجبرتها على تحديد موقفها فى مسألة شائكة خطيرة على كل حال ، وشديدة الوقع فى ضميرها ، هذا الضمير الذى يجب أن يظهر بجلاء ووضوح حينما يبحث الآباء مشاكل أبنائهم ومطالبهم . وقد اختصت الماركيزة بكثير من واسع الحيلة والمكر ؛ المكر المقنع . فلم تكن من السذاجة والغفلة بحيث تخفى عليها مقاصد سرفينيه . يضاف إلى ذلك طول تجربتها فى هذا الميدان ، وخبرتها وفهمها للرجال ولا سيما هذا النوع من الرجال الذين هم على شاكلة سرفينيه فلا غرابة إذن فى أن تجد الأم قد أصدرت حكمها السريع فى أمر هذا الزواج وقلما قالت لابنتها هل جننت حتى تطمعين فى زواجك من . سرفينيه إنه لم يفكر ولن يفكر فى ذلك ! !

وساءلت نفسها: « كيف استعمل سرفينيه هذه الطريقة القديمة مع ابنتى ؟ وماذا سيفعل بعد ذلك معها ؟ هذا الماجن الماكر ، زير النساء والحفلات الصاخبة ؟ وكيف تتجنب صغيرتى شرّه وتتلافى

ضره ؟ ... أما أنا فلا أدرى الطريقة الواضحة التى اتبعها لأحميها من الوقوع فى شراكه ، ولأحول بينها وبين ارتكاب أغلاط وحماقات قد تكون نقطة تحول فى حياتها المستقبلة ... من يعتقد أن فتاتى هذه تظل ساذجة للآن ، بريئة الطوية سليمة النيّة ، قليلة الخبرة بالحياة والناس؟» واختلطت الأفكار وتصارعت فى رأس المارکيزة ... فتعبت وارتبكت ... وعجزت عن الاستمرار فى التفكير والتقدير ... ثم عاودت البحث فيما يجب أن تفعله ، ولكن بدون جدوى ؛ إذ ظهر لها الموقف معقداً محيراً .

وفى النهاية ألقت جانباً بكل هذه التقديرات المزعجة وخلصت إلى طريقة أراحتها وهى : أن تلاحظهما عن قرب ولا تغفل عنهما ، وآلت على نفسها أن تكيف الموقف بعد ذلك حسب الظروف والملابسات ، وأن تتكلم مع سرفينيه - إذا لزم الأمر - وتباحثه ، وهو اللبيب الذكى الذى لا تخفى عليه مرامى الكلمات ، وتناقشه فى أمر علاقته بإيفت . غير أنها لم تهيىء ، فى نفسها ، الأسئلة التى ستواجهه بها ، ولا نوع الاتفاقات التى قد يمكن أن تعقد بينهما .

وبالرغم من ذلك فقد كانت سعيدة بهذه الفكرة التى وانتها واستقر أخيرا رأيها عليها . ثم فكرت من جديد فى نفسها ، ولم

يكن بد من التفكير فى ... ساڤال الجميل . وهامت نظرات عينيها فى ظلام الليل متجهة نحو اليمين ... نحو هذا الضوء الذى يحلق فى سماء «باريس» ... حيث ساڤال ... وأرسلت بيدها نحو المدينة الكبيرة باريس التى تضم عشيقها قبلات سريعة بعثتها فى ظلام الليل واحدة إثر الأخرى من غير عدد ... وبصوت خافت جداً همست وكأنما تناجى به من تهواه وقالت

— أحبك ياساڤال ... أحبك من كل قلبى

— ٥ —

ولم تذق عينا إيفت للكرى طعماً مثل أمها ، واتكأت على حافة النافذة المفتوحة وقد امتلأت عيناها بدموع لم تنسكب من مقلتيها من قبل بمثل هذه الغزارة ؛ فقد عاشت حتى هذه اللحظات وكبرت ونضجت فى جو كله طيش ومرح ، وشباب وصفاء . فلماذا تفكر الآن ؟ وعلام تجهد نفسها وتضنيها فى هذا التفكير الحزين العميق ؟ ولماذا لا تشبه حالتها حالة من هم فى مثل سنها ، حيث يغمرهن الصفاء وتحيط بهن الأحلام السعيدة والخيالات الجميلة وتملأ فراغهن ؟ ولماذا هذه الشكوك التى توخزها بأسنتها وأشواكها ؟ والوساوس التى أوشكت أن تعصف برأسها ، وهذه المخاوف وتلك الأوهام الثقيلة التى نفضت عليها هدوء الحياة وأحالت بسمتها إلى مسحة من ألم .. ؟

وكان يبدو أنها تعرف كل شىء ؛ لأنها كانت تتحدث عن كل شىء ، ولأنها كانت تنهج نهج من يحيطها وتتصرف كتصرفاتهم ،

وتتكلم بأسلوب الذين كانوا يعيشون حولها وحول أمها . فكان يظن أنها مثلهم معرفة وعلما ، وخبرة وتجربة . ولكن الحقيقة أن معلوماتها عن الحياة والعالم لم تكن تعدو معلومات فتاة مراهقة ترعرعت بين جدران أحد الأديرة . أما جرأتها فى الكلام فترجع إلى قوة غريزة المحاكاة والتقليد التى منحتها الطبيعة لكل بنات حواء ، ولم تكن ناشئة من علوم ومعارف عرفتها حتى تكسبها كل هذه القوة فى التعبير والجرأة فى المحادثة والمناقشة . وكانت تتحدث عن الحب والهيام كما يتحدث ابن الموسيقى عن الموسيقى ، أو ابن الفنان عن الفن وهو لما يتخط العاشرة من عمره . إنها علمت أو بالأحرى ارتابت وشكت فى أى نوع من الغموض والابهام تخفيه وراءها كلمة الحب . حقاً إنها نطقت وتلفظت بها غير أنها لم تعلم — لعدم خبرتها — بما تخفيه هذه اللفظة القصيرة من معانى كثيرة . وقد ألقى على مسامعها كثير من الفكاهات المكشوفة ، والمزاح الماجن الذى أثر بعض الشىء فى سلامة طويتها ، وكان له بعض الأثر فى أن يطعم براءتها بقليل من الخبث يزيدها خبرة ودراية بأمور العشق والغرام .

وكان كل أصدقاء أمها يحملون ألقابا ويحتلون مراكز ،

ويظهرون أو يتظاهرون بالغنى والثروة ، والكل يقبل يد أمها باحترام ظاهر . وبعضهم كان فعلا من أفراد الطبقه الحاكمة وأمراء البيت الملكى ؛ حتى أولاد الملوك كانت الماركيزة تجالسهم أكثر من مرة ، وقد سعوا هم إلى هـذا اللقاء بأنفسهم . وقد أحاطت إيفت بكل ذلك علماً إلا أنه لم يعنها شيئاً فى إدراك الحقيقة؛ فهى ساذجة بطبيعتها ، لم تصل إلى مكانة أمها علماً بالنفسيات ومعرفة بالأشخاص والأشياء ، وخبرة بالمجتمع وما يحويه من مساءة أو مسرة ومن شرور وآثام .

ومما ضاعف سعادتها جهلها بكل ما كان يحدث من أمور مريبة شائنة بين أرجاء منزلها ! ! غير أن سرفينيه بكلماته التى قذفها بها ، وهما فى النهر ، أيقظ فى نفسها اضطراباً مفاجئاً لم تدر كنهه بادئ الأمر ، وأضرم نار الفزع بين جوانحها ، فتركت له النهر وولت مذعورة كما تولى الحيوانات المجروحة . حقاً لقد أصيبت إيفت بجراح نفسية عميقة من طعنات هذه الكلمات التى رددتها وقلبتها لتعى مدلولها ، ولتكشف عن كل ما تحمله من معان ، وما تحجب وراءها من مدلولات .

ولكن ماذا أراد سرفينيه بهذه الكلمات المهينة ؟ . إنها تجهل

إذن أمراً أخفى عنها ، وأن هناك حتما سراً أو فضيحة أشفقت أمها من أخبارها بها . وهل هى الوحيدة التى تجهل هذا السر وذلك العار ؟ أم يشاركها فى ذلك بقية الأصدقاء ؟ ! وبقيت برهة مشدوهة غائبة عن رشدها كهذا الذى صدم بفضيحة كانت خافية عليه ، أو جابه خيانة من شخص كان لا يعتقد أن تتأتى منه خيانة أو نزلت به إحدى هـذه النكبات القلبية التى تورث الخبل والذهول . ولم يشفها مما هى فيه إلا العبرات والدموع ...

وغسل البكاء غشاوة الحزن التى رانت على قلبها وأعاد إلى نفسها البشاشة وإلى محياها الانطلاق . ثم انتزعت كل ما علق بذهنها من مواقف فيما قرأته من قصص وروايات شاعرية ومزجت تلك المواقف بعضها ببعض وأخرجت من كل هذه الأمشاج المتنافرة والأخلاط المتباينة قصة تخيلتها عن نفسها وأسرتها .

وأراحتها هذه القصة المؤلفة بعض الشىء ، ووجدت فيها إلى حد ما نوعا من العزاء والسلوى ، وتوهمت أنها أزاحت الأستار عن الأسرار فاستراحت من هذه الخواطر الغريبة التى لم تخل من الطرافة والاغراء ، الإغراء الذى يدفع إلى التقصى والبحث . وتخيلت أنها بنت غير شرعية لأحد الأمراء ، وأن

أمها المسكينة التى أغراها الشيطان وتبرأت منها أسرتها قد ولت هاربة ، ثم التقى بها أحد الملوك ومنحها لقب «ماركيزة» . وغلب على ظنها أن الذى أنعم على أمها بهذا اللقب إنما هو «فيكتور عمانويل»

ثم سرى بها التوهم مسرى آخر ، فقدرت أنها طفلة من سلالة ممتازة تخلى عنها أهلها ؛ وياله من أهل نبلاء ؛ إذ تخلوا عنها لأنها ثمرة حب محرم قطفتها الماركيزة من أغصان الخطيئة وتعهدتها بالعناية والرعاية وأحاطتها بالعطف والتربية . وفى الحق لقد كانت إيفت تتأرجح بين السرور والألم ، والسعادة والحزن : حزينة من جراء هذه الشكوك الأوهام .

سعيدة لأنها تخيلت قصة لحياتها وفرضت لنفسها فيها دور البطولة ، ونسجت خلالها أكثر من موقف نبيل مناسب لها ومتفق مع شخصيتها . ولم لا ؟ وقد فكرت فى الدور الذى ستؤديه ورتبته وفق الحوادث التى اخترعتها ، فغدا يشبه إلى حد كبير هذه الأدوار التى قام بها أبطال روايات الأديب « سكريب » أو مدام ساند ، وهى هذه الأدوار التى تبنى على عزة النفس والشهامة والإخلاص والإيثار فضلا عن الألفاظ الحلوة والأسلوب الأخاذ وابتهجت طبيعة إيفت غير المستقرة شيئاً ما إلى هذا الوضع

الجديد ، وظلت إلى المساء تفكر فيما ستفعله كى تنتزع الحقيقة المجردة من أمها . ولما أقبل الليل الذى تتورفيه الأشجان ، وتضطرم الأحزان وتهتاج فيه الخواطر والأفكار ، وتمتلىء فيه المآقى بالعبرات ، وتوضع فيه الخطط ، ليتوصل بها إلى المآرب والرغائب ؛ فى هدوء هذا الليل رتبت الابنة فى ذهنها خطة دقيقة ، لكى تحصل بها على طلبتها ومأربها ، ونفذت هذه الخطة حينما قالت لأمها إن سرفينيه قد طلب يدها فعلا ورغب فى زواجها ، .. وقالت لنفسها إبان وضعها لتفاصيل هذه الخطة ـ :

« إذا ما ظهر العجب والدهشة على محيا أمى ـ بعد أن تعلم منى أمر زواجى بسرفينيه ـ أو إذا ما بدت منها صرخة ، أو أفلتت من شفتيها جملة أو كلمة ، فقد يكون لى فى ثنايا ذلك كله ما ينير طريق الحقيقة أمامى ، وما يبدد سحب الأوهام التى يحيط بهذه الحقيقة »

وكانت إيفت تأمل أن تنفجر أمها من البهتة ، وتتوقع أن تحل هذه المفاجأة غير المتوقعة عقال لسانها ؛ فتبوح على غير شعور منها بما تنطوى عليه جوانحها ، أو بما تكنه بين أضلعها من أسرار قلبها ، وخبايا حياتها ! !

ولكن سرعان ما انهارت آمال البنت عندما وجدت أمها فى هذا المساء مسيطرة على أعصابها ، لم يبد عليها أى أثر للدهشة والاندفاع ، إلا سحابة خفيفة من ضيق واستياء سرت على محياها . واستيقظ عند الفتاة — بسبب الاستخفاف وعدم الاهتمام الذى تحصنت به الأم عند مناقشتها لابنتها هذه الليلة — أقول استيقظ لديها فجأة ماركب فى طبيعة المرأة من دهاء ومكر ، وما اختصت به من لؤم ودعة ونعومة ورقة ؛ ففهمت أنه ينبغى ألا تلح بعد ذلك فى السؤال عن معرفة السر ، بل عليها أن تدركه بمفردها ثم رأيناها وهى تعود إلى غرفتها ، والقلب منقبض ، والروح فى ضيق وشدة ، اترزح مرة أخرى تحت أعباء من الهموم والأوهام . وجادت عيناها بالدموع ، وهى متكئة بمرفقيها على حافة النافذة بعد فشلها فى مغامرة الليلة ... وبكت طويلاً من غير أن تفكر فى شىء أو تبحث عن شىء ، أو تكتشف شيئاً . وقليلا قليلا ... شرع التعب يسرى فى جسدها حتى وصل إلى عينيها فأغمضهما . ونامت وهى متكئة على الحافة بضع دقائق نوما مضطربا كنوم المجهدين المتعبين الذين ليس لديهم القوة والنشاط للتخلص من ملابسهم قبل أن يلقوا بأنفسهم على مراقدهم .

نامت نوماً يتخلله الاستيقاظ الفاجىء عندما هوت رأسها مرارا بين كفيها فخرمت بسببه من لذة الرقاد وهناءته وظلت هكذا إلى أن أجبرتها برودة الفجر على أن تترك النافذة وتذهب إلى مخدعها . بعد أن تثلجت يداها اللتان لم تصبحا قادرتين على حمل رأسها .

واتخذت لنفسها فى اليوم التالى ، واليوم الذى جاء بعده ، موقف الحيطة والحذر على أساس من التفكير المستمر الذى دعاها إلى أن ترصد حركات من حولها ، وتتربص بهم ، وتتلصص عليهم ، محاولة أن تعلل كل ما يصدر عنهم من حركات . وفجأة لاح لها خيط من النور ، وشعاع ضئيل من ضياء أخذ بيدها إلى طريقة جديدة هى : الشك فيمن حولها ... حتى الأم .. لم تسلم من سهام شكوكها وظنونها . وفى هذين اليومين مر فى ذهنها كل ما قدرته ، وجال بخاطرها كل الفروض التى افترضتها ، والممكنات التى تخيلتها .... واندفعت نحو مقصدها فى عزم وتأكيد ، وأعانها على ذلك ما فى طبيعتها من عنف وقلق .

ولما مضى عليها فى حياتها الجديدة هذه يومان ، وبدأ اليوم الثالث — وهو يوم الاربعاء — دبرت تدبيراً حاسما حازما ، ورسمت خطة تامة عمادها البحث والتجسس . واستيقظت فى صبيحة الخميس

وقد تسلحت بالخبث وتدرعت بالدهاء والمكر ، مصممة على أن تشهر هذه الأسلحة الفتاكة ضد الجميع ، معتزمة فى قرارة ضميرها أن تجعل شعارها ورمزها هاتين الكلمتين : « أنا وحدى » . وانفقت زهاء ساعة أو أكثر باحثة عن أى الطرق التى تجعل لهاتين اللفظتين مفعولاً مباشراً ونتيجة محسوسة ملموسة ...

* * *

ومع الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم وصل مرقيتيه وساقال وكانت الفتاة ووالدتها فى استقبالهما . ومدت فتاتنا يدها بتحفظ واحتراس ، وبلهجة أليفة رزينة حيت قائلة .

— كيف أصبحت يا مسكاد ؟ وهل الصحة على ما يرام ؟

— صباح اليمن والإسعاد . أما الصحة ، فكما ترين ، لا بأس بها .

ورمقها بنظرة فاحصة ، ثم انثنى إلى نفسه متسائلا : « أية مسرحية محبوكة الأطراف ستمثلها لى الآن ؟ مهما تفعل فإن أوارقها مكشوفة لى دائما . »

ولف ذراعه بذراعها ، وأخذت الأم كذلك بذراع ساقال .. وساروا ... حتى اختفوا وراء الزهور والأشجار . وفى

ممشاة الحديقة سارت إيفت وقد اصطنعت سمت الرزانة ، وظهر عليها الوقار وطفقت تنظر إلى رمال المشاة ، وتصغى فى انتباه قليل إلى مقالة صاحبها . وفجأة سألته :

— هل أنت صديق حقاً يا مسكاد ؟

— إن أمرك لغريب ، أو تشكين فى ذلك ؟

— إننى أسألك أأنت صديق حقيقة بكل ما تحتمله كلمة الحقيقة من معانى ؟

— إن كل ذرة فى جسمى وروحى تنطق بهذه الصداقة ؟

— ألدرجة ألا تكذب على ولو مرة ، مرة واحدة فقط ؟

فأجاب ساخراً : مرتان إذا استدعى الأمر !

— ألدرجة أن تكاشفنى بالحقيقة كلها ، ولو كانت مرة دامية ؟

ولما أجاب بالإيجاب قالت :

— حسناً إذاً ما رأيك الحقيقى فى الأمير « كراقالو » .

فندت من فمه آهة الدهشة وقال :

— آه ، عجباً !

— أرأيت جيداً الآن أنك تأخذ أهبتك لتبدأ فى الكذب ،

— أبداً كل ما هنالك أنني أبحث عن كلمات دقيقة مضبوطة مفصلة على القدّ أخبرك بها عن رأيي ...

— وهل رست بك سفينة البحث على شاطئ المعرفة ؟

— نعم ... نعم والآن فقط ... فكرافالو أمير روسي ، روسي حقيقة ما في ذلك من ريب ، روسي يتكلم اللغة الروسية ، ويحب «الفودكا» الروسية ؛ لأن مسقط رأسه الأراضي الروسية ، ومن غير المستبعد ؛ بل من الجائز جداً ، أن يكون لديه جواز سفر قدم به إلى فرنسا ، وليس به من خطأ إلا اسمه ولقبه ...

ونظرت إلى عينيه بعمق وهي تقول : تريد أن تقول إنه ...

— إنه مغامر يا آنستي ! تماماً .

— شكراً ، والفارس « فالرياني » . إنه من عينة الأمير ومن صنفه ، أليس كذلك ؟

— ها أنت ذي تعترفين بالحقائق .

— والسيد دي بالقيني ؟

— ذلك شيء آخر ؛ فالسيد رجل من رجالات المجتمع الراقي الحديث ، شريف ، ذو مركز محترم إلى حدّ ما ، غير أنه أسمر البشرة قليلاً من خدمته وفلاحته لأرضه فيما مضى.

— وأنت ؟

فأجاب بدون تردد :

— أنا الذي يدعونه رجل الحفلات ، شاب من عائلة طيبة ، كنت ذكياً فقضيت على ذكائي بتهريجي وفكاهاتي التافهة ، عشت بصحة جيدة قبل أن أضيعها في المجون والليالي الحمراء ، وبين الصخب والدن ، والكأس والطاس ، أنفقت الفضل من مالي ، وأضعت المركز الرفيع ؛ لأنني من أنصار الفراغ . والأعمال عندي — على وفق نظريتي الخاصة — عديمة الفائدة ، لا نفع لها ولا قيمة ولم يبق لي إلا الثروة ، وشيء من التجارب والخبرة بحياة الناس ، هؤلاء الناس الذين أضمر لهم احتقاراً لا حدّ له . يكاد يشمل رجالهم ونساءهم على السواء ، وعفواً عن مضايقات السفلة والدهماء ، ومسامحة لهفواتهم وأخطائهم .

وفوق ذلك فأنا — كما تريني — صريح إلى أبعد حدود الصراحة ، وستتبينين مستقبلا أن لدي من القدرة والقوة ما يحملني على أن آلف وأولف ؛ وعلى أن ينحني كثير من الأفراد كثيراً من حبهم واهتمامهم . ومع كل مثالبي ومحامدي هذه أقدّم نفسي وعقلي وروحي وجسمي وكل ما أملك ، واضعاً الجميع رهن إشارتك

وتحت أمرك وخاضعاً لمشيئتك فهيا تصرف ... تصرف فيها
منذ اللحظة يا آنستى .

وأنصتت إيفت ، فى غير ابتسام ، وهى تفحص كلامه ، وتبحث عن مراميها ، وتتلمس ما وراءها . ثم سألت :

— وما رأيك فى الكونتيسة « دى لاى » ؟

فنطق بسرعة مجيباً :

— اعذرينى إذا ما قلت إننى لا أبدى رأياً مهما كان فى النساء ؛ فإن آرائى عنهن من أخص خصوصياتى التى لن أبوح بها .

— ولا على واحدة منهن ؟

— ولا على أية واحدة منهن !

— استشف من تحفظك هذا أنك تنظر إليهن بمنظار أسود وتحكم عليهن حكماً لا يسر — لكن هل النساء كلهن عندك فى درجة واحدة ، ومنزلة سواء ؟ وهل حكمك ينصب عليهن جميعاً من غير استثناء ؟ ألا توجد حتى امرأة واحدة ... واحدة فقط تشذ عن هذه القاعدة التى تسيطر على فكرك ؟

— عند عرض أية قاعدة معينة أو إصدار حكم قاس فدائماً

ما يستثنى الأشخاص الحاضرون !

فصعد الدم إلى وجنتيها فصبغهما بلون الشفق الأرجوانى ، وسرعان ما سألت : — حسناً ! وإذاً ما رأيك فىّ ؟

— هل تودين أن تقفى عليه ؟ لك إذاً ما أردت . فأنت شخصية بارعة لبقة تمتازين بشعور حساس ومهارة وإحساس ، تعيشين فى دنيا الواقع ، ولا تبتعدين عن الحقائق كثيراً ، تتخذين الناس ألعوبة فى يدك فى الوقت الذى تخفين فيه مراميك ، وتحجبين مقاصدك ، عدّين خيوطك وشباكك ، وكلك ثقة وصبر واطمئنان إلى النتائج والعواقب التى تتمخض عنها الحوادث والمقدمات .

— أهذا كل ما عندك ؟

— ليس فى جعبتى غير ما ذكرت !!

فأجابت بلهجة فيها ثقة وتحدٍّ :

— سأحملك على أن تغيّر عقيدتك السالفة ، ورأيك فىّ .

واقتربت من أمها التى خفضت رأسها ، وسارت بخطى وئيدة متقاربة ، وبتلك الهيئة التى يسير بها المرء عندما يتحدث عما يمس شئونه القلبية وأموره الشخصية ، وشرعت ترسم على الرمال أثناء سيرها رسوماً وأشكالاً مختلفة بطرف مظلتها المدببة ، وتكلمت

من غير أن تنظر إلى ساقال ... تكلمت وقتاً طويلا ... بهدوء وتريث ، متكئة على ذراعه ملتصقة به . ولما رنت البنت إلى أمها ووجدتها على تلك الهيئة اتسعت عيناها من الدهشة ، وتحركت فى أعماقها ظنون ووساوس بهمة لم تخطر لها على بال من قبل ، ومرّ فى خاطرها إحساس من الشك ، كما يمرّ على الأرض ظلال السحب الخفيفة التى تطاردها الرياح العاتية .

ودق الجرس معلنا ابتداء وقت الغذاء ... وتناولوا الطعام فى جو كله صمت مشوب بالهدوء والفتور . وبدت فى محيطهم طلائع زوبعة وشيكة الهبوب . وكمن فى الأفق سحاب ثابت صامت محمل بالعواصف والأعاصير !!

وما أن انتهوا من ارتشاف القهوة حتى قالت الأم لابنتها :

— إنى أفضل أن تقضى البقية الباقية من عمر هذا النهار فى التنزه مع سرفيليه ؛ لأننى أشعر أن هذا الوقت من أنسب الأوقات التى تقضى بين الرياض وتحت ظلال الشجر وأريج الورد والزهر .

— لا يا أماه ! لن أخرج اليوم .

وظهر الضيق على أسارير الماركيزة وقالت ملحة ناصحة :

— قومى ولو بجولة قصيرة يا ابنتى ، فهى مفيدة لصحتك .

وبلهجة خشنة جافة أجابت البنت :

— لن يكون ذلك يا أماه . سأمكث اليوم فى المنزل وأنت تعلمين حق العلم لماذا أصر على البقاء وأتشبث به ، تعلمين ذلك جيدا منذ ليلة الأمس التى أخبرتك فيها بكل ما حدث !! .

غير أن مدام «أوباردى» لم يعلق فى ذهنها شىء من المحاورة التى دارت بينها وبين ابنتها مساء الأمس ، فلا عجب إذا ما انتابها فى موقفها هذا شىء من الاضطراب والخجل أرادت أن تخفيه بقولها : — آه لقد تذكرته الآن ، واعذرينى إن كان ذهنى مشتتاً وتفكيرى موزعا .

وحقا لم يشغل تفكيرها ويشغف قلبها إلا ساقال ورغبتها فى الانفراد به . وتألمت فى قرارة نفسها من موقف ابنتها واصرارها على الاعتكاف فى المنزل الذى سيحول بينها وبين ساعات سعيدة كانت تعمل جاهدة على أن تقضيها متمتعة بساقال . وبدأت أصابع إيفت تطرز بهمة « مفرشاً للتطريز » وهو الذى أسمته فيما مضى باسم « السلام العام » ، والذى لم تكن يداها تتناوله بالتوشية والحياكة إلا مرات معدودات فى العام حينما تضيق ذرعا بالفتور الممل والفراغ المسئم ...

وقربت مقعدها بجوار والدتها بينما جلس الشابان فى ثراخ على مقعديهما. ومضت الساعات فى حديث متقطع مريض كانت توجه الماركيزة خلاله إلى ساقال نظرات والهة هائمة ... ولم تنفس عنها، أو تشف غلتها هذه النظرات الجائعة. فطفقت تقدح زناد تفكيرها للبحث عن مخرج ووسيلة تبعد بها ابنتها إلى حين.

ولما اقتنعت أخيرا أنها لن تنجح فى زحزحة ابنتها عن رأيها، وعجزت عن إيجاد حيلة تستغلها لتحقيق مآربها، وخشيت أن تفلت الفرصة من يدها قالت لسرفينيه:

— أنت تعرف ياعزيزى الدوق أننى سأبقيك وساقال لتقضيا هذه الليلة ها هنا، ثم نذهب غداً جميعاً إلى «شاتو»؛ حيث ننعم هناك بغذاء شهى فى مطعم «فورنيير».

وفطن سرفينيه إلى ما تخفيه هذه الدعوة وراءها من مقاصد وأغراض فابتسم، وانحنى موافقا وهويقول:

— أنا دائماً طوع أمرك ياسيدتى الماركيزة.

ومضى يومهم ثقيلا ... مرهقاً بطيئاً ... وأقبل المساء، وحل وقت العشاء، وأقعمت السماء بسحب ثقال، وسكن الهواء وسكتت النسمات ... وعمهم، بعد فراغهم من الطعام، نوع من

الضيق، ولون من الخشية البهمة الناعسة جعلت، الصمت يخيم عليهم جميعاً ... وظلوا فى الشرفة لا يتكلمون إلا بعد فترة طويلة من الزمن. ونشر الليل جوّه الخانق وظلامه الكثيف ... وفجأة مرقت فى الأفق شعلة من ضياء البرق مزقت حجب الظلام، وأضاء وميضها الذى بهر الأبصار وجوه هؤلاء الأشخاص الأربعة التى غرقت فى الظلام. ثم تبع ضياء البرق صوت جلبة واهية واهنة، وضوضاء ضعيفة أشبهت قليلا ما صوت انطلاق عربة ثقيلة حينما تعبر قنطرة خشبية غير متماسكة. ولم يكن ذلك الصوت إلا صوت النذير الذى يسبق موكب الرعد.

وازداد لهيب أنفاس الجو، وارتفعت حرارته، وبدى للعيان أثره المرهق فى النفوس والأجسام، ثم صمت الليل ... وأوغل فى الصمت، وقامت إيفت ثم قالت:

— إنى ذاهبة لأستريح؛ فقد أجهدنى تغير الجو، ونال منى تقلب الطقس. وقدمت لأمها جبينها وللشابين يدها، وعلى كليهما طبعت قبلات رقيقة. ثم اتجهت صوب حجرتها التى كانت تقع تماما فوق الشرفة وملأت أشعة الشموع فضاء الغرفة، وتسللت خيوط من نور النافذة واستلقت على أوراق شجرة البلوط التى

ارتفعت بجوار النافذة ، فصبغت الأوراق بلون أخضر شاحب ساحر ، استطاع أن يأسر ناظري مرفينيه ، وظل يحدق بعينيه فى الأوراق مؤملاً أن تنقل هذه الأشعة المنسابة من الحجرة خيال إيفت على الأوراق التى يرنو إليها ... ولم يدم أمله طويلاً ؛ فقد خبا الضوء واطفئ النور ، وحينئذ تنهدت مدام أوباردى بارتياح ، وقالت وكأن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن صدرها : لقد رقدت ابنتى الآن .

ونهض مرفينيه وهو يعقب :

— خيراً ما فعلته ، واسمحى لى أن أفعل مثل ما فعلت . . .

وقبل اليد التى مدتها إليه الماركيزة ... ثم اختفى ، فانفردت بساقال الذى سرعان ما ارتمت فى أحضانه وأحاطته بذراعيها ، وضمته فى شوق ثم هوت جاثية على ركبتيها راكعة أمامه على الرغم من أنه حاول منعها ، وهى تهمس :

— إنى مشوقة لرؤية وجهك الوضاء تحت نور البرق .

ولم يمض لإيفت جفن بعد أن أطفأت شموع حجرتها التى غادرتها ، ودلفت منها ، وهى حافية القدمين ، منسابة كما ينساب الظل الرقيق إلى « البلكون » التى تقع فوق الشرفة . . وظلت تنصت . . وتصغى وتتعذب من هذه الشكوك المؤلمة المبهمة التى

تفور فى أعماقها . . وازدادت ألماً عندما لم تستطع رؤية شىء فى الشرفة التى أخفت الأم وساقال وأجهدت نفسها لترى ولتسمع ، ولم يصل إلى ناظريها أو مسامعها المرهفة شىء سوى همسات مدغمة وأصوات مبهمة . أما الذى ملأ سمعها بقوة وشدة فهو وجيب قلبها وخفقان فؤادها .

وفجأة سمعت صوت النافذة التى تعلو رأسها وهى تغلق . فتأكدت أن مرفينيه قد صعد إلى حجرته ، ولم تبق إلا أمها فى خلوة مع ساقال ! ولمع البرق مرة ثانية ، ولاح لها ، وهو يشق السماء شطرين فأظهر بضوئه القوى الخاطف الذى لم يستغرق إلا زهاء لمحة ، كل المناظر الطبيعية التى عرفتها من قبل ؛ فظهر لها خلال هذه الثوانى المنيرة النهر الكبير ، وقد استحال لونه لها كلون اللجين المنصهر . غير أنها لم تكن تود منه أن يظهر لها ذلك ؛ بل كانت تتحرق ليكشف لها ما تود معرفته ، بل ما يجب معرفته مما يدور تحتها . فى الشرفة . ولما تبدد الضوء سمعت صوتاً انبعث من الشرفة يهتف : « أنا أحبك » ! ولم تستبن بعد هاتين الكلمتين شيئاً . . وعمت جسدها رعشة غريبة ، ورعدة غمرتها من رأسها لأخمص قدميها ، وسبح تفكيرها فى خضم

من الهموم ، وكسا الأفق صمت ثقيل يشبه ذلك الصمت الأبدى الذى لا حد له ولا نهاية . وأشعل ضوء البرق الفضاء مرة أخرى ، وأضاء الأفق لحيظات خاطفة وما هي إلا هنيهة حتى توالى البرق وتتابعت أضواؤه . وعاد الصوت الذى سمعته منذ حين يقوى عن ذى قبل ، ويردد فى تنهد :

« كم أحبك !! كم أحبك !! ». وعرفت إيفت هذا الصوت ، ولم يكن غريباً على سمعها ؛ لأنه صوت أمها . وسقطت قطرة عريضة تبعتها قطرات من ماء دافىء على جبينها ، وسرت فى الوقت نفسه هزة قصيرة جعلت أوراق الأشجار تضطرب وتصطفق ... وتتابعت قطرات المطر متدفقة متدافعة ... وسمعت ضوضاء آتية من بعيد ... ضوضاء مبهمة تشبه الجلبة التى تحدثها الريح بين أغصان الأشجار . واقتربت بقضها وقضيضها مع انهمار المطر الغزير الذى تساقط على الأرض ... وعلى النهر ... وعلى الشجر ... وعلى إيفت .

وبلل رذاذه ثيابها ، ثم نفذ منها حتى مس جلدها ... ولم تشعر هى بشىء من ذلك كله ؛ إذ لم تكن تفكر إلا فيما يدور فى الشرفة . وانتهى إلى سمعها صوت أقدام تغادر الشرفة ، وتصعد إلى

أعلا ، وأعقبها صوت أبواب تغلق فى داخل المنزل . وأذعنت العذراء لرغبة جارفة آلمتها ، وألهبتها ، ودفعتها لتتعرف كنه ما سمعت وتقف على حقيقته . فولت وجهها صوب السلم ... وفتحت الباب الخارجى ببطء فاستقبلها المطر الذى لم تبال بسقوطه وانهماره ... وسارت تحت قطراته المتلاحقة بخطوات محمومة فى حديقة المنزل تبحث عن النوافذ المضيئة علها تهديها وتعينها فى هذا الظرف الذى عز فيه الهادى المعين ... ولم تشاهد إلا نافذة واحدة ينبعث منها الضوء ... وفجأة لاح لها فى هذه النافذة المضيئة ظلان متجاوران ، ثم اقتربا حتى التصقا وتعانقا حتى صارا ظلاً واحداً . وانبعث برق جديد رمى على النافذة شعاعاً خاطفاً من نور وضياء كشف الظلين وقد غابا فى قبلة طويلة . وفقدت الفتاة السيطرة على أعصابها وتفكيرها ، وصرخت بكل قوتها : « أماه أماه ! » صرخت كما يصرخ المرء عندما يحذر شخصاً عزيزاً عليه من خطر ماحق يقترب منه .

غير أن هذه الصرخة اليائسة القانطة التى ندت منها لم تذهب سدى مع صوت المطر المنهمر ... فسرعان ما انفصل الظلان المتعانقان ... واختفى أحدهما ، بينما بدا الآخر وكأنه يتفقد شيئاً

أو يريد أن يرى شيئاً فى ظلام الحديقة . وخشيت إيفت أن يقع بصر أمها عليها ، وهى فى هذا الوقف ... فاندفعت نحو المنزل ، وصعدت السلم بسرعة فائقة تاركة وراءها على درجاته آثاراً من الماء الذى تساقط من ثوبها .

وأغلقت باب حجرتها عليها وهى عازمة على ألا تفتح الباب لأى شخص كان . وقبل أن تخلع ثيابها المبللة اللاصقة بجسدها سقطت على ركبتيها راكعة مبتهلة إلى الله أن يزيل ضيقها ، ويمنحها من قوته التى تعلو على قوى البشر . ورفعت يديها إلى السماء تسأل من فى السماء العون والنجدة والحماية التى تطلب دائماً منه وقت الشدة ووقت اليأس والقنوط ، وبين العبرات وخفقات الأفئدة .

ومن حين إلى آخر طفق البرق يرمى ضوءه فى الغرفة ، فشاهدت صورتها فى المرآة وهى راكعة متوسلة وقد انسدل شعرها المبتل بالماء على كتفيها ... وأخذت وارتاعت لما تفرست فى المرآة . وبدا لها تغيير ملموس يطرأ على شكلها ... وظلت هكذا وقتاً طويلا ... طويلا جداً حتى أن عاصفة الطبيعة ابتعدت عنها دون أن تحس بها ... وصمت المطر عن التحدث ، واستراح الكون وهدأ بعد حديث المطر المتدفق . وبدأ ضوء خافت يغزو

السماء التى ظللتها وأظلمتها قطع السحب الكثيفة المتناثرة . ونفذت من نافذتها المفتوحة برودة معتدلة مقبولة مع هواء ممزوج برائحة العشب والحشائش ، فنهضت ، وبغير شعور نزعت ملابسها الرطبة وألقت بنفسها على سريرها ... وظلت متيقظة تتطلع عيناها إلى رؤية مولد اليوم الجديد ، وجادت مقلتاها بالدموع من جديد بينما طافت فى رأسها صورة أمها وعشيقها ، واقض مضجعها عظم الجرم ، وفداحة الخطب وجسامة الخطأ الذى ارتكبته أمها ، فتمتمت وهى تقرض على أنيابها : « يالله من عار !! يالله من عار !! »

لكنها قرأت فى كثير من الكتب والأقاصيص أخبار سيدات وأمهات فعلن مثل هذا بأنفسهن . كذلك قرأت فى خاتمة هذه الكتب وتلك الأقاصيص أن هؤلاء النسوة أنفسهن قد رجعن فى نهاية المطاف إلى الشرف ولذن بالاستقامة ، وتمسكن بأهداب العفة والفضيلة . وخفف من شجنها وشجوها أن وجدت فيما قرأت مآسى تشبه مأساتها هذه ، فتسلت وتمنت أن يسدل الزمن ستار العفة ونقاب الطهر على خاتمة مأساتها تلك . وبدأ الذهول القاسى الذى انتابها من هول المفاجأة يهدأ وتخف

حدثه منذ تذكرها المواقف القصصية المؤلمة التى أضفى عليها الشعراء لوناً شاعرياً أبعدها عن الجفاف ؛ حتى أن الاكتشاف الموجع الممض أحست به بعد كل ذلك وكأنه خاتمة طبيعية أو تكملة عادية لبعض القصص التى انتهت من قراءتها من قبل . وحدثت نفسها فى عزم وإصرار قائلة : « سأنقذ أمى ! »

وعادت إلى روحها البشاشة وإلى وجهها الطلاقة ، وانقشعت عن واحة سرورها سحب الأسى والأسف ، بعدأن صح منها العزم على إنقاذ أمها من وهدتها . وشعرت بالقوة تسرى فى كيانها وبالقدرة على التنفيذ لما صممت عليه . ووجدت نفسها مستعدة للنضال عمن أنجبتها ، وفكرت فى الطرق التى يجب أن تسير فيها . ومن كل هذه الوسائل التى دارت فى خلدها انتخبت وسيلة راقتها ؛ لاتفاقها مع طبيعتها الشاعرية ... وأعدت دورها الذى ستلعبه ، كما يعد الممثل دوره الذى سيقوم به ، كما رتبت المحادثة التى ستدور بينها وبين أمها وأشرقت الشمس ... ومع إشراقها بدأ الخدم يروحون ويغدون فى أرجاء المنزل ، وتقدمت واحدة منهم تحمل للفتاة قطعاً من « الشيكولاته » فى صفحة ، ولما وضعت الصينية على المائدة قالت :

— قولى لوالدتى إننى متعبة ؛ إذ لم يزر النوم جفنى طيلة الليلة الفائتة . ولن أغادر مرقدى إلا بعد رحيل السيدين ، كما عليك أن تخبريها بأننى آمل ألا يقلقنى أحد ، أو يزورنى أى إنسان ؛ لأننى سأحاول على التعاس لأحاول النوم . فعقدت الدهشة لسان الخادم ، وبخاصة عندما نظرت فوجدت ثوب سيدتها مبللا ملقى على بساط الحجرة فى إهمال ، كما تلقى الأسمال البالية والخرق القديمة . وأخيراً قالت :

— لابد أنك قد قضيت جانبا من الليل خارج هذا المنزل أليس كذلك ؟

— نعم قمت بجولة تحت المطر لأرطب جسدى .

ومالت الخادم فالتقطت « الجونيلا » والجوارب والحذاء الملطخ بالوحل . وخرجت تحمل كل هذا على ذراعها وهى ضجرة متأففة.

ولم تفارق الفتاة حجرتها إذ كانت واثقة من أن أمها لابد آتية إليها وما أن أخبرت الخادم سيدتها الماركيزة بأمر إيفت حتى قفزت من سريرها متجهة صوب حجرة ابنتها ، لا لتطمئن على حالتها وصحتها ، ولكن لأن الشك وقر فى قلبها ، منذ أن سمعت فى الظلام صيحة ابنتها : « أماه ! أماه ! » ؛ فأرادت أن تعلم مدى

صحة هذا الريب ، وقالت :

— ماذا بك يا ابنتى ؟

فنظرت إليها العذراء ، وأجابت فى تلعثم :

— أنا... أنا ... بى أنا ...

ثم استولى عليها اضطراب مفاجىء شديد ، وكادت تختنق من شهقاتها المتتالية ، واختلط الأمر على الأم مما رأت ، فعادت تسأل من جديد :

— ماذا عندك ؟

ولم تستطيع الأبنة أن تجيب ؛ اذ نسيت كل العبارات التى أعدتها ، وانهارت خططها التى رسمتها من قبل ... وما كان منها إلا أن أخفت وجهها بين يديها وتمتمت :

— أوه ياأماه !

وظلت مدام أوباردى واقفة أمام مرقد ابنتها ، متأثرة غاية التأثر ، وتريد فى الوقت نفسه أن تفهم جيدا مايعتلج فى نفس إيفت وما يدور فى أعماقها ... وسرعان ما تكشف لها تقريبا كل شىء بفضل ماتتمتع به من إلهام نافذ ... وإحساس صائب ؛ ولم يكن فى مقدور إيفت أن تتكلم ، ولم يكن فى مقدورها كذلك

أن تمنع عبراتها من الانهمار والسيلان . وأمام هذه الحال تضايقت الأم ، وأحست باقتراب مناقشة عاصفة ، ومشادة حامية فسألت فجأة :

— لم لا تحدثيننى عما أضناك وأتعبك ؟

ولم تستطع إيفت إلا أن تنطق بعبارات متقطعة :

— أوه ... هذه الليلة ... رأيت ... نافذتك ...

فشحب وجه المركيزة وانتزعت كلماتها انتزاعاً حينما قالت :

— حسناً ، ثم ماذا ؟

فأجابت الإبنة وهى تنتحب وتنشج :

— يعز علىّ ياأماه أن ... أن ...

واستحال خوف الأم واضطرابها إلى ضيق وغضب مكبوت ، ثم هزت كتفيها ، واستدارت لتخرج وهى تقول :

— إننى واثقة من أن مساً من الخبل قد أصابك ، فلا تستدعينى إلا إذا زال عنك ما ألمّ بك ، وعادت إليك حالتك الطبيعية .

فما كان من الفتاة إلا أن رفعت وجهها المغمور بالدموع من بين راحتيها وصاحت :

— لا ... لا ... لا تبتعدى فلا بد من أن أكلك فاسمع

إلىّ ، لكن قبل أن أصرح بشيء عديني أن نرحل نحن الاثنان بعيداً جداً إلى إحدى القرى ، ونعيش فيها كما تعيش الفلاحات من غير أن يعرف أحد حقيقتنا ، خبريني ، هل ترغبين في ذلك ؟ إنني أرجوك وأتوسل إليـــك ، وأستحلفك باسم الأمومة أن تعديني بذلك .

وبقيت الماركيزة وسط الحجرة يغلي في عروقها دمها الشعبي الشرس ، واشتعل في أعماقها غضب المرأة العاشقة المهددة في حبها . فكاد يدفعها ذلك إلى أن تستأسد وتتمادى في عدوانها ، لولا أن قلل من سورة غضبها شعور مبهم من الخوف اعتراها ، ومزيج من حياء الأمومة وحنانها استيقظ لديها بغتة فهزّها هزاً ، ومال بها ثانية إلى طلب العفو والغفران ، وتنازعها هذان العاملان فلم تملك إلا أن تقول : — أنا لم أفهمك حتى الآن ! !

— لقد رأيتك يا أماه هذه الليلة ... ولكن لا ... لا ... لا ينبغي أن ... آه لو تعلمين ! سنبتعد عن هذا الجو ، وسنرحل معاً ، وسأعوضك عن كل ذلك حباً جارفاً عنيفاً ، سأحبك لدرجة تجعلك تطرحين أية عاطفة سوى عاطفتي نحوك .

وبصوت مرتفع مرتعش نطقت مدام أوباردي :

— إصغ إلىّ يا وحيدتي ، هناك أشياء لا تستطيعين إدراكها الآن ، وعلى كلّ تذكري ، وتذكري جيداً ، أنني سأمنعك من أن تحدثيني إطلاقاً في أمور مثل هذه

وسرعان ما تقمصت إيفت دور الناقد الذي أعدّه لنفسها ، واتخذت لهجة تمثيلية ، فرفعت من صوتها وتحدثت ، كما يتحدث الممثلون على خشبة المسرح ، ونفذت أخيراً إلى صميم المأساة التي شغلت تفكيرها ، وتناست حزنها وأساها ، خشية أن تبتعد عن المهمة التي أعدتها وقالت :

— لا يا أماه : إنني لم أعد طفلة ، لقد شببت عن الطوق ، وعركت الدهر خبرة وتجربة ، ومن حقي أن أعلم ، لا بل يجب أن أعلم ... ومن العبث أن أقول إنه يفدعلينا أناس سمعتهم كريهة وسيرتهم غير كريمة ، ونستقبل في دارنا دائماً أشخاصاً مقامرين ملوثين . وأنا أعلم أننا لا نحترم من أجل هـــذا ، وهناك أشياء أخرى أدهى وأمرّ ! ! أشياء لا يجب أن تتكرر ، أو تفعل مرة أخرى ؛ لأنني لا أريدها أن تتكرر فهل سمعت ؟ ومن أجل هذا يجب أن نرحل ونبتعد ؛ لنتخلص من هذه الرائحة العفنة النتنة ، ولنحيا حياة شريفة سداها الجهاد ولحمتها الشرف

وقوامها الاعتماد على النفس . سنعمل وسنجاهد . وسنكافح ونشتغل إذا استدعى الأمر . ولئن أوصدت أبواب الرزق أمام وجهينا فهاهى ذى مجوهراتك وحليك نبيعها ونقتات من أثمانها . ونعيش كما تعيش السيدات الشريفات ، أما إذا قدر لى أن أتزوج فإن ذلك يكون خيراً لى ولك .

فحدجتها أمها بنظرة كلها حقد وأجابت :

— إنك لمجنونة ، وإنى لأود منك أن تنهضى من فراشك ، وأن تأتى معى لكى تتناولى مع الجميع

— لست أفهم شيئاً مما تقولين ، ولا أدرى ماذا تريدين ؟ ولكن الذى أعنيه أنا : أنه يوجد شخص لا أريد أن أراه ببيتنا مرة أخرى ، وأنت تفهميننى الآن جيداً ! ! ولا بد أن يخرج إذاً هذا المخلوق من هنا ، وإلا فسأخرج أنا والأمر بيدك وأنت بالخيار :

وبهتت الأم إزاء هذا كله ، ولم تجد شيئاً تقوله إلا تلك الجملة التى لم تكن تسعفها ذاكرتها إلا بها فى مثل هذه المواقف :

— « إنك لمجنونة » .

فردت عليها الابنة بحماس تمثيلى :

— لا يا أمى . ولننفذ إلى لب الموضوع ، هذا الرجل يغادر هذا المنزل وإلا فسأتركه أنا غير باكية على شىء ! ولن يثنينى عن هذا العزم قوة أو يضعفنى وعيد ؛ لأننى لا أحب أن أبقى فى مكان يدنسه هذا الذى تسير الرذيلة فى ركابه ! !

— وإلى أين ستذهبين ؟ وماذا ستعملين ؟

— لا أدرى وليس ذلك يهم عندى ، إنما الذى يهمنى ويشغل بالى أمر واحد فقط هو أن نكون نساء شريفات وأن نحيا كما تحيا السيدات الطاهرات .

وهيجت الماركيزة وأثارت أعصابها هذه الجملة التى رددتها ابنتها « سيدات شريفات » فصرخت :

— اسكتى عليك اللعنة يا ثرثارة ، فما رأيت مثلك سفسطة ولجاجة ، وأنا لا أسمح لك أن تتكلمى معى بمثل هذه اللهجة ، أو تصبين فى سمعى هذه العبارات التى تتشدقين بها فى مواجهتى ، وما أنا إلا امرأة مثل سائر النساء . هل تريدين أن تصفينى من طرف خفى بأننى امرأة متحللة داعرة ، امرأة سوء وفحش وفجر ، دعينى إذاً أقول لك فى صراحة إن كل ذلك حقيق .. وبشرفى ، والسيدات الشريفات لا يفضلننى فى شىء ، ولا يتميزن عنى بأية

مبرة ، فالدماء سواء ، أسامعة أنت ؟

فذعرت إيفت وتمتمت قائلة : عجباً لك يا والدتى :

واندفعت أمها تستكمل بتحمس وثورة :

— إننى امرأة داعرة متهتكة ، وماذا فى ذلك ؟ إننى لو لم أكن كذلك لكتبت عليك الذلة والمسكنة منذ أمد بعيد ، ولاستقبلتك الحياة بقسوتها وجبروتها منذ مولدك ، وتوالت الآلام ونوت الآمال ، ولتحملت من الضيق والشدة ما لا قبل لك به ولا طاقة لديك عليه ، ولمثّلت على مسرح الحياة الواقعية الدور الذى مثلته وأنا صغيرة ، دور الخادم — الذى قبلتُ مرغمة القيام به حينما تقطّعت بى أسباب الرزق — ولصارت أصابعك الناعمة خشنة غليظة من كثرة العمل لا لساعات محدودة فى اليوم ، ولكن — كما كنت أشتغل — طيلة النهار لقاء أجر تافه ضئيل لا يتعدى الثلاثين فلساً ، ولذقت من الهوان ألواناً حينما تتولين غسل الأوعية والأوانى المنزلية ، أو عندما ترسلك سيدتك لشراء لوازم الطعام وحاجات المنزل ، أو وقتما تعاقبين إذا ما تباطأت بضعة دقائق خارج الدار . أمصغية لما أقول يا من تقضين اليوم بأكمله بعيدة عن دارى تمرحين وتطربين ؟ وما كان يتسنى لك

ذلك لو لم أكن غانية . ثم صمتت برهة وقالت بصوت هادئ منخفض :

— هذا كل مكنون ضميرى عرضته عليك ، وهذه آخر ورقة كشفتها لك ! بل آخر سهم فى جعبتى ألقيت به إليك . فهل يا ترى قد أذنبت عندما احترفت لأنير لك طريق الدنيا القاتم البهيم ؟ مهما تقولين عنى ، ومهما تصفينني بأقبح النعوت ، وتلصقين بى أشنع الصفات والعيوب فما أنا فى نظر نفسى سوى امرأة مستضعفة لم تجد أمامها غير هذا الطريق الذى سلكته حينما أشرفت على الهلاك والموت جوعاً ، وحينما تلفتت حولها فلم تجد لها من معين ولا ناصر إلا خمسين فرنكا لا تسمن ولا تغنى من جوع . وكان لا بد لها آنئذ أن تنقذ نفسها وإلا قضى عليها ، وما كان لها أن تختار ؛ إذ لم يكن أمامها سوى هذا السبيل الذى سلكته ، ولم تكن تملك إلا جسدها فباعته للشيطان !

وصكّت الأم كبيرة صدرها كما يفعل التائب المعترف بذنبه ، واتجهت ملتهبة الوجه منفعلة نحو سرير ابنتها المارضة وأكملت :

— وما دامت الفتاة جميلة وحيدة لا عائل لها ولا مورد فلابد لها والحال هذه من أن تتبلّغ لقمتها مغموسة من دم عرضها

وشرفها ، وإلا عضها الفقر بنابه ، وطحنتها الحاجة ، وافترسها الجوع والغربة . لا اختيار : إما مسغبة وطهارة ، أو تنعـم ودعارة . وفى الحقيقة إن السيدات اللاتى تدعين أنهن شريفات إنهن فى الحقيقة خاملات « متصعلكات » فلا شىء يجبرهن على أن يبعن أنفسهن فتمدهن المال . . المال الكافى الذى يعينهن على المعيشة الساهية اللاهية ، والحصول على أى رجل من أى صنف كان . هؤلاء حقاً هن الفقيرات التاعسات .

ووقفت الأم بجوار مخدع البنت التى بدأ عليها الذهول والدهشة ، والتى جاشت فى قرارة نفسها رغبة كادت تدفعها لأن تصرخ طالبة النجدة أو الفرار . وبكت بصوت مرتفع ، كما يبكى الطفل عندما يضرب . وأمسكت الماركيزة عن الحديث ونظرت لابنتها التى كاد يصرعها اليأس والقنوط ، فغمرها الألم وأحست بوخزات ضميرها تطعنها ، وبحنان وشفقة أضعفت مقاومتها ، فانهارت على السرير مادة ذراعيها فى استعطاف لابنتها وتمتمت وهى تشهق :

— صغيرتى المسكينة . . صغيرتى المسكينة آه لو علمت كم تؤلميننى ؟

وانخرطا معاً فى بكاء دام وقتاً غير قصير ثم نهضت الأم التى لم يستمر حزنها طويلا وقالت :

— هيا بنا يا وحيدتى ، بعد أن علمت الأمر وما فيه ، ولن أملك أن أزيل معالمه ، أو أبدل شيئاً فيه الآن . وليس لنا إلا أن نرضى بالواقع ونأخذ الحياة كما تأتى إلينا .

ولكن البنت استمرت فى بكائها ؛ إذ كان وقع الصدمة شديداً عليها ، وكانت المفاجأة أقوى من أن تحتملها أعصابها فشلت تفكيرها . وقالت أمها من جديد :

— هيا انهضى وتأهبى لتناول الطعام حتى لا يلحظ أحد شيئاً . فهزت الفتاة رأسها دلالة على الرفض من غير أن تنطق أو تتلفظ . . وأخيراً تكلمت بصوت بطىء ممل يشرق بالنحيب :

— لا يا أماه . وأنت تعرفين جيداً ما قلته لك من قبل ، ولن أغير رأيى أو أخرج من حجرتى إلا بعد رحيلهما ؛ إذ أننى لا أرغب فى رؤيتهما . . أبداً . . أبداً ، أما إذا عادا بعد . . فأنا . . . فأنا . . . فلن ترينى بعد ذلك قط .

وجففت الماركيزة عبراتها من جراء روعها وجزعها وهمست :

— هيا كونى عاقلة وحكمى فكرك . . .

ومرت دقيقة كلها صمت وهدوء قالت الأم بعدها :

— من الأفضل لك إذاً أن تستريحى هذا الصباح ، وسأعود لرؤيتك بعد الظهر .

وبعد أن طبعت قبلة على جبين ابنتها خرجت لتتزين وتستعد للطعام ، وما أن اختفت حتى نهضت إيفت مسرعة وأغلقت الباب بالمزلاج لتغدو وحيدة إلا من آلامها ، فريدة إلا من أشجانها . ثم استغرقت فى تفكير مضن محض .

وحوالى الساعة الحادية عشرة طرقت الخادم باب الحجرة ونادت :

— سيدتى الماركيزة تسأل عما إذا كانت الآنسة تريد شيئاً ، وماذا تطلب من طعام الغداء ؟

— لست بجائعة ، وكل ما أرجوه ألا يزعجنى أحد أو يقلقنى مخلوق .

وقبعت فى سريرها كما يقبع المريض الذى اشتدت عليه وطأة العلة . وعند الساعة الثالثة قرع بابها من جديد ، فسألت :

— من بالباب ؟

وسرعان ما أجاب صوت أمها :

— إنه أنا يا صغيرتى . جئت لأطمئن على حالتك .

ثم اقتربت متكلمة بهمس كأنها تتكلم مع مريضة فى دور النقاهة :

— أظنك الآن أحسن من ذى قبل . أليس لديك الشهية لتتناولى ولو بيضة ؟ !

— لا ، ومع الشكر .

وبجوار السرير جلست الأم ، وخيم الصمت ، فلم تتلفظ إحداهما بكلمة واحدة . وبقيت إيفت فى مرقدها لا تتحرك ، وبداها مسترخيتان على الفراش ، ثم قالت الأم :

— ألا تقومين ؟

— سأنهض ، ولكن بعد قليل .

وبلهجة بطيئة رزينة تابعت حديثها :

— لقد فكرت كثيراً يا والدتى ، وإليك آخر ما استقر عليه رأيى : فالماضى هو الماضى ، قد ودعناه إلى غير رجعة ! ! ولن نتبشه بعد اليوم ، أما المستقبل فلا مناص من تغييره ، وإلا فسأعرف ماذا أصنع ، والآن يكفينا ما قطعناه من وقت فى هذا الصدد .

وأحست الماركيزة التى اعتقدت أن المناقشة فى ذلك الموضوع

قد انتهت منذ الصباح أحست بشيء من القلق والضيق بشأنها ، ولا سيما أن ابنتها قد خاضت الآن فى الكلام عن هذا الموضوع أكثر من أى وقت مضى ، وحكمت على ابنتها بالجهل ؛ إذ كان يجب أن تعلم كل ذلك منذ أمد بعيد . ولزمت الأم الصمت ، ولم تعقب على هذا التهديد بشيء ، ثم عادت تقول :

— ألا تقومين ؟

— نعم ، وإننى مستعدة .

وحينئذ قامت الأم مقام الخادم لتعاون ابنتها ، وتساعدها فى ارتداء ملابسها بعد أن أحضرت لها جواربها وملابسها الداخلية . ثم احتضنتها وقبلتها وقالت :

— ألا تريدين أن تتريض قليلا بعد العشاء ؟

— نعم يا أماه .

ولم يتعد حديثهما الأمور المادية العامة بينما كانت تتنزهان على شاطىء النهر .

وفى صباح اليوم التالى ذهبت إيفت وحدها وجلست فى المكان الذى كان يجلس فيه مرتينيه وقت أن كان يقرأ لها تاريخ حياة النمل وحدثت نفسها قائلة :

— لن أبرح مكانى هذا إلا بعد الاستقرار على رأى ، وإيجاد حل لمشكلتى .

وانساب الماء المتفرع من النهر فى سرعة عند قدميها مملوءاً بالفقاعات والأمواج والدوامات التى تمضى فى فرار صامت مصحوب بدوران سريع . وانسابت فى مخيلتها كذلك عدة وجوه وصور مرتبطة بحالتها وموقفها ومأساتها ، كما استعرضت الوسائل التى تصل بها إلى حل حاسم ونتيجة سديدة .

لقد فكرت ماذا يكون موقفها إذا لم تذعن الأم لرغبتها ، ولم تهاجر معها إلى قرية نائية بعيدة عن العيون ؟ ! وهل تستطيع

أن ترحل وتهرب بمفردها .

ولكن إلى أين ؟ وكيف ؟ وبم تعيش ؟ أتعمل ؟ ولكن فى أى شىء ؟ وعلى من تعتمد ؟ وإلى من تتجه ؟ ليوجد لها عملا ؟ ثم إن المعيشة الكئيبة الحقيرة التى يحياها العمال وبنات الشعب والطبقة الكادحة بدت لها رهيبة غير جديرة بها ولا أهلا لها ؛ بل مخزية لاتناسبها ، وقاسية لاتحتملها وثقيلة لاطاقة لها بها .

واتجه تفكيرها إلى أن تصبح ممثلة كبعض بطلات القصص . ثم تصبح محبوبة من الجميع بعد قليل ، وفى النهاية يتزوجها ابن رئيس الحى ، أو ابن كبير من وجهاء الجهة التى ستقيم فيها :

وقطعت عليها حقيقة مرة سلسلة تفكيرها هذه ، وهى أنها من معدن ليست طيب ، وكان يجب قبل ذلك كله أن تكون من سلالة طيبة وأرومة صالحة ، وأسرة لها سمعتها وكرامتها ومكانتها ، حتى إذا غضب والد حبيبها ، أو لامها أو اتهمها بسرقة قلب ولده أمكنها أن تقول له بفخر واعتداد ، وعزة وأنفة :

— إننى لاأقل عن ابنك مكانة ومركزاً لأننى إبنة أوباردى من عائلة أو باردى الغنيَّة عن التعريف !

غير أن هذه الوسيلة أيضا لم ترقها ، ولم تقع فى النهاية لديها

موقعاً مقبولاً ؛ لأنها هى وسيلة متبذلة عادية لاابتكار فيها . وحتى فكرة دخولها الدير وانقطاعها للعبادة فيه ، واعتكافها بين جدرانه وأسفاره ؛ لتبتعد عن دنيا الناس وما تزخر به من آلام ومآس لم تستحسنها أيضا لأنها لم تحس بأى ميل لأن تحياهذه الحياة الدينية الصرفة ، فضلاً عن أنها لم تكن على تقوى كاملة أو ورع دائم .

أما الفكرة الخالدة التى دارت وتدور وستدور حتما فى فكر وخيال كل فتاة .. وهى فكرة الزواج فقد تناولتها إيفت أيضا بالبحث والتحليل ؛ وخلصت إلى أنه لن يستطيع أحد أن يخلصها مما هى فيه بالزواج منها ؛ نظراً للهاوية العميقة التى تردت فيها أمها ، والحالة الرذيلة التى انغمست فيها من أنجبتها فلطخت اسم الأسرة ، وأوصدت أبواب الزواج فى وجه الابنة . وأسقط فى يدها وقت أن بدت لها جميع الطرق مستحيلة وكل المنافذ مغلقة أمامها . فلم يكن لها بد إلا أن تطلب شيئا آخر ، وتطرق بابا طرقه قلبها كل أحمق إمعة ، قصير النظر سقيم الوجدان . فكرت فى شىء هو حيلة كل عاجز ألفى عقـــله ، وطريق سار فيه كل ضيق الأفق ... طريق الانتحار . . صممت على أن تسلك هذه السبيل ، وعزمت على ذلك كما يعزم المرء على أمر عادى ؛ صممت على ذلك فى الوقت الذى

غاب فيه عن تفكيرها أن الموت هو نهاية المطاف لاعودة بعده ، ورحيل مابعده من أوبة أو رجوع . ووداع لن يعقبه لقاء ؛ إذ هو وداع أبدي للحياة وللأرض وما عليها ... فاتها ذلك كله ؛ لأنها سرعان ماستمدت بتحمس وطيش واندفاع لإبراز هذه الفكرة وإخراجها إلى حيز الوجود ، وتأهبت لركوب هذا المركب الشطط الوعر الذي لا يقره عرف أودين ، ولا يرتضيه ناموس أو شريعة . وأجهدت ذهنها في أي الوسائل تختار وأية ميتة تموتها ، وأية نهاية تريد أن تختم بها دورها الذي تضطلع به على مسرح الحياة ؟

بيد أن كل السبل والطرائق ظهرت لها عسيرة التنفيذ صعبة التحقيق ، تتجسم فيها الخطورة والمخاطرة ، وتتطلب فوق ذلك كله عملاً عنيفا ، وهي بطبيعتها ميالة تبغض العنف وتنفر منه ؛ ويقتضي صراعا ومغالبة وهي لاتحتملهما . . . فتراجعت ، وعدلت حتى عن طريقة الانتحار بالخنجر والمسدس لئلا تشوه أو تجرح ؛ لأن هاتين الآلتين تتطلبان يداً ماهرة خبيرة متمرنة تطلق وتسدد ، فتصيب الهدف وتصل إلى الغرض . أما يدها فقد تصيب وغالبا ماتخطىء ، والويل لجسدها من التشويه إذا ماحادت يدها وأخطأت . ولم ترتض فكرة الانتحار بالشنق لأنها ؛ طريقة انتحار السوقة

والدهماء ، فضلاً عن أنها قبيحة بشعة .

أما الموت غرقا فإن ذلك لن يكون ؛ لأنها تجيد السباحة ، وقد يتغلب حب النفس عليها ، وهي تصارع الموت والموج فتفكر سابحة إلى الشاطىء . لم يبق إذاً إلا السم . لكن أي نوع تختار منه وكل أنواعه تسبب آلاما لاتطاق ، أوغثيانا لايحتمل ؟ وهي تريد أن تقضي نحبها من غير قيء أو ألم . وأخيراً وجدت ضالتها في غاز « الكلوروفورم » الذي قرأت عنه فيما مضى أنه قاد في لحظات إلى أبواب الآخرة فتاة شابة رغبت في التخلص من الحياة

وشعرت بشيء من زهو نفسي وإحساس بكبرياء ورفعة ؛ فسوف يعرف الجميع من هي إيفت ؟ وسيلمس الكل أثر نفسيتها وشخصيتها . وكرت راجعة إلى « بوجيفال » ودلفت إلى صيدلية هناك وطلبت من الصيدلي قليلا من الكلوروفورم زاعمة أنها ستهدىء به آلام أسنانها . وأعطاها الصيدلي الذي كان يعرفها زجاجة صغيرة جداً من هذا المخدر واتجهت سائرة نحو بلدة « كرواسييه » حيث تسلمت من صيدلية ثانية قنينة ثانية من هذا السم ، ومن « شاتو » اشترت زجاجة ثالثة ، والرابعة ابتاعتها من بلدة « ريل » . . .

وأنفقت في هذه الجولة كثيرا من الوقت ، فوصلت متأخرة

عن موعد الغذاء، ومعدتها خاوية بها شوق إلى التهام أى طعام. ودفعها الجوع والسرور النفسى إلى أن تأكل بشهية، وسعدت أمها وسرت لرؤيتها جائعة هكذا تلتهم ما على الصحاف من طعام.

وأحست الأم بهدوء واطمئنان فقالت لابنتها بعد الفراغ من الغذاء:

— كل أصدقائنا وأحبائنا سيأتون ليمضوا عندنا يوم الأحد، فقد دعوت الأمير والفارس والسيد دى بلفيلى..

وامتقع وجه الابنة ولم تجب بشىء، وأسرعت بالخروج مولية وجهها شطر المحطة وابتاعت تذكرة سفر لباريس. وظلت طيلة الساعات التى قضتها هناك تنتقل من صيدلية إلى أخرى مشترية من كل واحدة قليلاً من الكلوروفورم...

وعادت فى المساء وجيوبها غاصة بزجاجات الكلوروفورم الصغيرة. وفى اليوم التالى كررت هذا الصنيع. وكم كانت فرحتها لا تقدر عندما دخلت صدفة فى محل لبيع العقاقير والعطارة واستطاعت أن تحصل منه على ربع رطل دفعة واحدة.

وتلبدت السماء بالغيوم فى يوم السبت فاعتكفت فى المنزل ولم تبرحه، وأمضت النهار كله فى الشرفة متمددة على مقعد طويل

من الخيزران وانقضى هذا اليوم من غير أن تفكر فى شىء تقريباً.

وفى صباح يوم الأحد ارتدت حلة زرقاء أظهرت قوامها وكشفت عن فتنتها. فقد أرادت أن تكون جميلة وجميلة جداً فى هذا اليوم بالذات. وتهادت فى مشيتها نحو ... التى تبدى رأيها بصراحة فى الزينة والتجمل ... نحو هذه التى لا تخجل أو تبخل من أن تظهر كل شىء على حقيقته ... نحو التى وقفت أمامها كل أنثى وأطالت الوقوف، نحو المرآة، وقفزت إلى عقل إيفت، وهى تتأمل محاسنها أمام المرآة، فكرة مفاجئة جعلتها تصيح بصوت مكتوم مخنوق بعد أن أتابتها رعدة هزت جسدها:

— أحقاً... سأكون غداً مع الأموات!! ميتة جثة هامدة؟ لا أتكلم ولا أفكر، فتنقطع صلتى بالناس ولن يرانى أحد ولن أرى أحداً أو شيئاً من هذا كله؟ وتأملت وجهها بانتباه واهتمام كأنها لم تره من قبل، وتحسست خديها المتوردين، وتفرست فى عينيها فاكتشفت فتنة وروعة لم تتبينهما فى أى وقت مضى، وبدا لها على محياها دلائل حسن وبهاء لم تظهر لناظريها من قبل. وجزعت من رؤية صورتها فى المرآة وكأن أمامها شخصية غريبة، أو صديقة جديدة لم تعرف صفاتها ولم تتعرف شمائلها وخاطبت نفسها:

— هذه أنا ... هذه أنا . أنا بلحمى ودمى ، وتلك صورتى وشخصيتى التى أراها أمامى الآن فى المرآة . يالالدهشة .. تديكون غريباً أو غير مستساغ فى بعض الأحايين أن يتطلع المرء فى المرآة إلى نفسه ، ومع ذلك فإنه لا يستطيع بدونها أن يعرف شيئاً عما حبته الطبيعة لوجهه وجسمه من جمال وحسن . كل من رآنى يعرف وجهى وشكلى فى الوقت الذى لا أعلم فيه عنهما شيئاً !!

وأسدلت على صدرها شعرها الجدول المضفر ، نظرت إلى طوله وغزارته ونعومته وهمست : كم أنا جميلة جذابة ، وغداً سأكون ميته فاقدة الحس والحركة فوق مضجعى هذا !!

ونظرت إلى مخدعها وتمثلت لعينيها نهايتها هذه . وجسم لها وهمها جسدها وهى ممددة مسجاة على فراش الموت تستدير حياة وتستقبل أخرى ... فارتاعت والتاعت وهتفت فى جزع : « ميتة » . وخلال حقبة ، لا بل فترة قصيرة من عمر الزمن يصبح وجهى المشرق ، وعيناى الساحرتان ، وخداى التفاحيان يصبح كل ذلك فى صندوق رمة عفنة ، وجثة بالية ، أو أشلاء متناثرة تحت التراب .. « ميتة » يالها من نهاية فظيعة ! !

وانقبض قلبها وداخله هم وقلق وحصر وضيق . وتسلل

شعاع من أشعة الشمس التى غزت القاطمة كلها مع نسمة عليلة من نسمات الصباح المشرق تسللا إلى نافذتها فوجداها جالسة تفكر ... تفكر فى الموت ، وتتخيل النهاية ، وتتحسر على المباهج التى لم تأخذ نصيبها الكامل منها ... ولكن لتذهب ، ولتقض نحبها ، فلن يغير موتها من معالم الدنيا شيئاً ... حتى محتويات حجرتها لن تمتد إليها يد التعديل والتبديل ؛ بل ستبقى كما هى . ولن تذهب نفس إنسان حسرات عليها ، حاشا أمها التى قد تحزن من أجلها ... وكل ماستشيع به هو عبارات رثاء لاوزن لها ولا قيمة ، لاتعدو العبارات المألوفة التى تقال فى مثل هذه المناسبات : « كم كانت جميلة ، ورائعة ! » « إنها ذهبت وهى فى عمر الزهر » ... وهذا كل ماهنالك !! ووقع بصرها على كفها اللدن ، وذراعها العاجية وقد اتكأت بها على ذراع مقعدها ، وفكرت مرة أخرى فى النهاية والفناء .. أهذه الذراع الجميلة البضة ستنقلب رمة سوداء بالية ؟ وهذا الساعد الأبيض المتلىء سيغدو طعاماً للديدان وزاداً للهوام ؟ ورائحة البدن العطرة الحلوة ستصبح نتنة تؤذى وتزكم الأنوف ... وسرت فى جسدها هزة من رعب ، وموجة من خوف ، ورعدة من اضطراب ... وعاودها حب الذات وشىء من الأنانية فتساءلت :

— كيف تختفى وحدها من الحياة ، وهى جزء من الحياة ؟ ولماذا تمضى ولا يمضى الكون معها ؟

وتفجرت ضحكات فى الحديقة ، وارتفعت أصوات ونداءات ممتزجة بضوضاء البهجة وصخب الدعابة والمداعبة التى استشرت فى الحديقة ، ودوى كل ذلك فى أذنها وأفزع سمعها ، ولاسيما ذلك الصوت الرنان الذى تعرف صاحبه ، صوت السيد دى بلفيني الذى شرع يغنى :

« ها أنذا راكع تحت قدميك أرقب ظهور طلعتك البهية ، فامنحينى البهجة ... وتكرمى بالظهور ... »

ونهضت من غير وعى أو تفكير وأطلت عليهم ناظرة إليهم ، وتجهمت حينما استقبلوا ظهورها بوابل من التصفيق ... وعرفت خمسة منهم ، أما الاثنان الآخران فلم تكن قد رأتهما من قبل . وتراجعت فجأة مذعورة ، بعد أن شعرت أن هؤلاء جميعاً أتوا ليلهوا لدى أمها . ولما دق الجرس مؤذنا بدنو وقت الطعام قالت لنفسها :

— سأحيل حفلهم مأتما ، وسأريهم كيف يكون الموت .

وهبطت بخطوات كلها ثبات واصرار كخطوات شهداء المسيحيين من الرومان ، وهم يتقدمون صوب الميدان حيث تتلقاهم

الأسود وتتلقفهم السباع . وصاحت إيفت الجميع وهى تبتسم ببشاشة مشوبة بشىء من التعاظم والتعالى ، وسألها سر ڤينيه :

— إنك اليوم أقل ضيقاً وتبرماً من أى وقت مضى أليس ذلك كذلك يا مؤنستى ؟

فأجابت بلهجة حادة قاسية :

— خذ حذرك فعندى اليوم مايدفعنى لارتكاب حماقات .

وحماقات جنونية : والتفتت إلى السيد دى بلفيني وأردفت :

— إنك أنت الذى ستغدو رفيقى اليوم ياصغيرى .

واتجهت إلى الكل قائلة :

— سأصحبكم جميعاً بعد الغداء إلى « مارلى » لنتمتع الطرف هناك بالعيد واحتفالاته .

وعرفت شخصية الضيفين الجديدين حينما قدما إليها ، أولها كان الكونت دى تامين ، والآخر الماركيز دى بريكيتو . وعلى الطعام آلت إيفت على نفسها ألا تتحدث ... إلا نادراً ...

وأخذت تستجمع كل عزيمتها وإرادتها لتبدو بهجة ، حتى لايظهر عليها شىء ، وحتى تكون دهشة الجميع أبلغ وقتما يتلقون نبأ مصرعها ، فيقولون من كان يظن أن هذه الشابة الفرحة المرحة

تلقى هذا المصير ؟ وما الذى دهاها فجأة حتى غلبها على أمرها ؟

وأشاحت بفكرها عن المساء واجتهدت ألا تفكر فيه أو فى هذه الساعة التى حددتها لتفارق فيها الكل حينما يكونون مجتمعين مساءً فى الشرفة وازدردت من النبيذ كؤوساً فوق طاقتها لتقطع الشوط إلى نهايته فلا تتداعى فى منتصفه ، وابتلعت كأسين صغيرين من الشمبانيا الغالية ولما فرغت من طعامها وشرابها اصطبغ وجهها بحمرة قانية ، وزاغ بصرها قليلاً وجرى الدم الثائر الفائر حاراً فى جسدها ورأسها ، وخيل لها أنها أصبحت جريئة قادرة على تنفيذ كل عزم وصاحت فى الجميع :

— هيا بنا إلى « مارلى » .

وأمسكت بذراع دى بلقينى وقالت وهى تنظم المجموعة :

— أنت يا مرفينيه ستكون جاويش هذه الفرقة فلتقف خارج الصف إلى اليمين . وسيسير هذا الفارس فى المقدمة ومن خلفه الأمير ومن ورائهما هذان الضيفان الجديدان اللذان يحملان السلاح اليوم للمرة الأولى .. هيا . هيا . وولوا وجوههم شطر « مارلى » ...

وأخرج مرفينيه من جوفه أصواتاً تحاكى صوت البوق ، وراح الضيفان يقلدان حركات قارعى الطبول . وتأفف السيد بلقينى من

هذه الصورة الهزلية الصبيانية وهمس والخجل يعمه :

— يا آنسة إيفت : تريثى فيما أنت مقدمة عليه ، وكونى أعقل من ذلك ، وإلا فأنت تعرضين سمعتك للخطر بعملك هذا !!

— أنها سمعتك أنت يا صاحب المكانة هى التى ستتعرض للقيل والقال أما بالنسبة إلى فأنا لا آهتم ولا أكترث بما سيقال عنى فى الغد ؛ لأنى قد أسقطت الغد من حسابى . وما دمت أنت تخرج مع فتيات مثلى فلا تلومن إلا نفسك .

واجتازوا « بوجيفال » مشيعين بدهشة المتنزهين الذين تلفتوا نحوهم والتفوا حولهم . وهرع سكان هذا الحى إلى الوقوف بجوار أبواب منازلهم ليشاهدوا هذه الفرقة ، وطفق المسافرون فى القطار الريفى البطىء الموصل ما بين « ربيل » و « مارلى » يشيعون أفراد هذه الفرقة تهكماً واستهزاء . وصاح الركاب الواقفون الذين اعتلوا سلم القطار « إلى الماء ... إلى الماء » . وسارت إيفت بالرغم من ذلك كله عابسة الوجه ، بخطوات عسكرية قابضة على ذراع بلقينى ، كما يقبض الجندى على ذراع أسير يخشى فراره . وظلت محافظة على علامات الوقار المرتسمة على وجهها الشاحب .

وبين حين وحين كان يتوقف مرفينيه عن تقليد صوت البوق

ليصدر أوامره بصوت كأنه العواء . ووجد الأمير والفارس فى صنيع هذه الفرقة مسلاة وملهاة ، وتسلية ما بعدها من تسلية حتى استبد بهما الطرب ، بينما راح الشابان الآخران يقرعان الطبول على طريقتهما الخاصة بدون انقطاع .

وما زالوا بهيئتهم هذه حتى وصلوا إلى مكان الاحتفال محدثين ضجة قوية من الفتيات بالتصفيق ، ومن الشبان بضحكات الاستهزاء ، ماعدا ذلك لرجل البدين الذى تأبط ذراع زوجته ؛ فقد صاح عندما شاهدهم بصوت يئن عن رغبته فى الاشتراك معهم :

— إن هؤلاء هم الذين لا يعرفون معنى الملل ، فطوبى لهم!!

وعندما لمحت إيفت أحصنة خشبية يدور بعضها أثر بعض أجبرت دى بلفيني على أن يركب عن يمينها ، بينما امتطت بقية فرقتها الأحصنة الدائرة الأخرى وراءها . وبعد أن انتهت تسليتهم تلك وتوقفت الأحصنة عن الدوران رفضت إيفت أن تنزل وأجبرت مرافقيها على أن يظلوا فوق ظهور خيولهم خمس مرات متتابعة . وقابل النظارة وجوع المتفرجين هذا الاجبار والإصرار بصياح وتهريج ودعابة . ونزل دى بلفيني مصفر الوجه ، مهتز الأطراف يكاد قلبه يتوقف عن الخفقان ونزلت هى وأخذت

تسير على غير هدى هى ومن معها . فجاسوا خلال سرادقات الاحتفال المنصوبة . وأجبرت كل رجالها مرة أخرى على أن يزينوا أنفسهم فأحاطتهم حلقة من الجماهير ... ثم اضطرتهم من جديد إلى شراء لعب ودمى مضحكة حملوها — وهم راغمون — على أذرعهم . وبسبب هذا كله أحس الأمير والفارس أن الداعبة قد تجاوزت الحد ، وأصبحت عبئاً ثقيلاً وحملاً لا يطاق .

أما سرفينيه وزميلاه فكانوا يطلبون المزيد ، إذ لم يسأموا بعد . وأخيراً وصلوا إلى نهاية البلدة ، وفجأة نظرت إلى تابعيها بعين شريرة نظرات شاذة غير عادية ؛ إذ سيطرت على عقلها فكرة غريبة ومرعان ما صفتهم على شاطىء النهر وصاحت :

— إن الذى يحبنى فيكم أكثر من غيره يجب عليه أن يقيم لى الدليل الآن على ذلك بأن يلقى نفسه فى ماء هذا النهر .

فلم يقفز أحد . وتجمع وراءهم حشد من الناس ضم سيدات ورجالاً على وجوههم دلائل الحيرة وأمارات التساؤل ، ماعدا جنديين ، يرتدى كل منهما سروالاً أحمر ، أخذا يضحكان ببله وغباء وقالت الفتاة :

— إذاً لا يوجد واحد منكم يرغب فى أن يقذف بنفسه فى

الماء، حتى يكون أهلاً لصداقتى ويفوز بحبى وقلبى ؟

فهمس مرقينيه : « أنا الجدير بذلك » .

وقفز إلى النهر . وأحدث سقوط جسده فيه رذاذاً وصل إلى قدمى إيفت ، وارتفعت من الجماهير همسات الدهشة وصيحات البهجة.

وعندئذ التقطت الفتاة من الأرض قطعة صغيرة من الخشب وقذفت بها فى تيار النهر قائلة : — هاتها !

وسبح الشاب وراءها وأمسكها بمقدم أسنانه ، كما يحمل الكلب المدرب كرة سيده ، ولما وصل للشاطىء ركع على أحدى قدميه ، وقدم لها القطعة الخشبية فأخذتها وهى تقول :

— إنك لشجاع جميل .

ثم مسحت بأناملها على شعره .

وصاحت بغيظ سيدة بدنية لم يرقها هذا المنظر : — أممكن هذا ؟

وقالت امرأة أخرى : هل من الممكن أن يتسلى إنسان عاقل بهذه الكيفية ؟ وأضاف رجل : على كل لست أنا الشخص الذى يخاطر بنفسه من أجل فتاة مهما تكن !!

وتعلقت إيفت بذراع دى بلففى مرة جديدة وجابهته بقولها :

— إنك لاتبدو فى نظرى الآن أكثر من أى شخص عادى.

ولقد غاب عنك الخطأ الذى وقعت فيه . ثم رجعوا .. وألقت فى الطريق إلى المتجمهرين حولهم بنظرات غضبى ثائرة وقالت :

— كم يبدو كل هؤلاء الناس فى نظرى غفلا بسطاء وبلهاً أغبياء !! ورفعت نظرها فى وجه مرافقها وقالت : — حتى أنت أيضاً تبدو فى نظرى كذلك .!!

وانحنى لها السيد دى بلففى موافقاً !!

والتفتت خلفها فوجدت أن الأمير والفارس قد اختفيا ، وألفت مرقينيه منكمشا فى ملابسه التى تقطر ماء ، وهو يمشى حزينا بجوار الشابين التعسين اللذين لم تعد لديهما قوة تمكنهما من مطاردة قرع الطبول ، فضحكت بجفاف وقالت :

— يظهر أنكم أخذتم كفايتكم وتحملتم فوق طاقتكم من هذا الذى تسمونه دعابة وتسلية ، أليس كذلك ؟ ألم تجيئوا لأجل هذا اللهو والانطلاق والبعد عن التكلف ، والاسترسال فى الاستهتار . فاشكرونى إذ هيأت لكم فرصة أتاحت لكم أن تحصلوا على أضعاف ما دفعتم من ثمن ، فاغبطوا أنفسكم لأنكم أخذتم أكثر مما أعطيتم ، واستفدتم أكثر مما أنفقتم .

وأمسكت عن الحديث ... ولم تبس بنت شفة بعد مقالتها

السابقة وسارت ... ولاحظ دى بلفينى قطرات من دموع تفر من عينيها، فسألها بجزع : — ماذا بك يا آنسة ؟

فهمست — لا شىء، فدعنى.

وبإلحاح ساذج قال : أتوجد عبرات من غير إحساس بألم ؟ هيا ياعزيزتى وأخبرينى عما يحزنك ويؤلمك.

وردت بغضب وضيق : اصمت.

ولم تستطع مقاومة الحزن الذى فاض بها وغلبها على أمرها، وتغلب عليها البكاء الذى تخللته شهقات شديدة... حتى أعجزها عن السير والتقدم، فأخفت وجهها ودموعها بكفيها.. وانتابها يأس عنيف هزها هزاً.

وظل دى بلفينى واقفاً بجوارها وقد اعتراه اضطراب وقال فى حيرة:

— يا إلهى لقد قصر فهمى عن أدراك السبب فى كل هذا !

وتقدم مرفينيه فجأة مقترحاً.

— هيا بنا إلى المنزل يا آنستى حتى لا يراك أحد فى الطريق وأنت على هذه الهيئة. وما الداعى إذاً إلى أن نقوم بما قمنا به من أعمال صبيانية وأعمال جنونية بوهمية ما دامت تؤثر فيك، وتؤلمك هكذا ؟! وجذبها من مرفقها ليرجع بها إلى «الفيلا». وما أن اقتربت

من سورها، حتى تركت رفاقها وولت مسرعة، فعبرت الحديقة وصعدت السلم وأغلقت باب حجرتها عليها.

واتجه مرفينيه إلى بائع فى المدينة فابتاع منه ملابس كملابس العمال الوطنية : سروالاً من المخمل، وقميصاً مزركشاً، وصداراً من الصوف واستبدلها بملابسه المبتذلة، حتى لهجته العادية استبدلها واستعاض عنها بلهجة شعبية، لهجة السوقة والدهماء.... ثم عاد بدوره إلى «الفيلا».

وظلت إيفت معتكفة فى حجرتها ولم تظهر إلا ساعة العشاء شاحبة الوجه يحفها ثبات ويحوطها وقار ورزانة.. وترقبت انتهاء العشاء بصبر نافد شاعرة بأن شجاعتها بدأت تنهار ومقاومتها أخذت فى الضعف، وما أن فرغت من احتساء قهوتها حتى أسرعت متجهة إلى غرفتها، وسبقتها إلى هناك أصوات البهجة وصيحات السرور النابعة من قلوب أصدقاء أمها. وألقى الفارس عدة فكاهات وأحاجى وألغازاً بدت ثقيلة كروحه، غريبة كسحنته. وأصغت فى حسرة ويأس إلى كل هذه الدعابات والأضاحيك. ولعب الشراب بعقل مرفينيه فانتشى. ولما عل قلد بعض حركات العمال ولهجتهم ونادى الماركيزة أكثر من

مرة ، وفى كل مرة كان يناديها : « ياربة البيت » وفجأة نادى ساقال وقال له : « يارب البيت » ، فدوى المكان بقهقهة عالية من الجميع . ووخزتها هذه الجملة بما تحمل فى طياتها من معان ؛ فحفزتها إلى أن تتعجل ما اعتزمت عليه ونزعت ورقة سطرت عليها :

« بوجيفال . فى الساعة التاسعة من مساء يوم الأحد . إننى انتحر حتى لا أصبح فتاة مهددة الشرف ملوثة الذيل . » إيفت

ملحوظة : الوداع ياأمى . . . ومعذرة .

* * *

ووضعت الرسالة فى ظرف وألصقته ، وعنونته باسم الماركيزة أوباردى . ولما فرغت تنهدت بارتياح ، وجذبت مقعدها نحو النافذة ، وقربت منها منضدة صغيرة ووضعت عليها زجاجة الكلوروفورم . وقطعة من القطن .

وبجوار الشرفة السفلى نشرت شجرة الورد الضخمة أزاهيرها ، ثم امتدت صاعدة بما تحمل من أغصان وورود حتى وصلت تجاه نافذة إيفت . وحملت نسمات الليل من شذا هذه الورود وطيب رائحتها حملا ثقيلا وسارت به حتى وصلت إلى مكانها فنفحتها من العبير العاطر ومنحتها من الرائحة الزكية العبقة

ما نعمت به لحظات . وسبح الهلال وسط السماء المظلمة السوداء ، وحجبته أحيانا سحب صغيرة ثقيلة . كذلك سبح فكرها فى جو من الأفكار المظلمة السوداء ، وزخر قلبها بدفعات من نحيب وشهقات ، فأسرع يدق دقات عنيفة . . . وناء بما يحمل فكاد ينفطر من الألم . وأحست فى نفسها أنها فى حاجة إلى طلب العون والنجدة من شخص صدوق يكن لها ودا صافيا ويضمر حبا خالصا . وارتفع صوت مرفينيه يقص قصة خليعة قوطعت أكثر من مرة بضحكات مرتفعة . وطغت بهجة الماركيزة على بهجة الحاضرين الآخرين ، وقالت وهى تضحك ضحكات لها نغمة معينة ووضع خاص ، ووقع معروف :

— إنه هو وحده الذى يستطيع أن يقول لى كل هذه الأشياء !

وأخذت إيفت القنينة وصبت قطرات قليلة مما تحويه على قطعة القطن وقربتها من شفتيها ، فانتشرت فى أرجاء المكان رائحة غريبة نفاذة ، وأحست ببخارها القوى يتجاوز فمها ويهيج حلقها ويثير لهاتها . . فسعلت بشدة ولما أطبقت فمها نفذ البخار إلى أنفها . . فاستنشقته بعمق مغمضة عينيها محاولة إطفاء نار الهواجس المشتعلة فى أعماقها كيلا تحس بشىء مما سيحل بها . وبدا لها أن صدرها

بدأ يتسع ويتمدد ، وأن روحها التى كانت منذ قليل مثقلة بالهموم قد بدأت تلطف وترق وتتخلص مما ران عليها .

واعترتها يقظة وانتعاش عم جوارحها وغمر أطرافها ، ونبه جسدها ، وتسللت نشوة مبهمة إلى نفسها فأراحتها وهدأتها ، وبدت لها حواسها مرهفة متيقظة حتى اسمتها كل همسة أو قولة حدثت فى الشرفة السفلى ... سمعت بوضوح الأمير كراقالو وهو يقص فى إسهاب وتفصيل كيف قتل قائداً عدواً فى إحدى المبارزات ، وتناهت إلى سمعها من بعيد هذه الضوضاء الخفيفة التى غالباً ماتحدث فى الحقول مساء ؛ حتى نباح الكلاب ، ونقيق الضفادع وحفيف أوراق الشجر وصل إلى مسمعها . وأمسكت بالزجاجة مرة ثانية وغمست قطعة قطن فيها واشبعتها من السائل وشمتها من جديد ... ومرت لحظات لم تشعر فيها بشىء ... ولما تنبهت استولت عليها غبطة وراحة وهناءة . وكانت ظمأى إلى أن ترتوى من تلك الغبطة والهناءة ، والراحة النفسية والجسمية التى تشعر بها عقب كل محاولة ... فلا غرابة إذا ماأعادت هذه المحاولة أكثر من مرة .

ونشط عقلها نشاطا محسوساً غريبا فقفز إلى فكر مختلفة ،

وطاف بمغامرات عديدة وتجوّل فى الماضى ، وهام فى الآمال والأمانى التى تمنت حدوثها فى المستقبل . ثم أحست أنها تجردت عن الجسدية ، وتخلت عن مادتها بفضل الكلوروفورم الذى سلبها كل شىء وأبقى لها تفكيرها حيا منتعشاً يذكرها بأشياء قديمة محتها يد النسيان ، وتفاصيل دقيقة عن حداثتها وطفولتها ، وتوافه وسذاجات أضحكتها . وكانت مازال تسمع الأصوات ، إلا أنها لاهتمامها بأفكارها وأحلامها لم تميز هاتيك الأصوات بعضها عن بعض ، ولم تستبن معانى الكلمات التى سمعتها ...

وتوغلت فى عالم الأحلام وتاهت فى أنواع من الخيالات الغريبة المتنوعة ... تخيلت أنها على ظهر زورق كبير يسبح فى مياه قطر جميل مفروش بالورود والزهور ... وعلى الساحل أناس يتحدثون بصوت عال ، ثم تخيلت أنها غادرت الزورق فجأة ونزلت على الشاطىء وشاهدت سرڤينيه مقبلا نحوها فى زى أمير ، ثم دعاها واصطحبها فشاهدا حفلا لمصارعة الثيران ، وسمعت حديث المارين الذين غصت بهم الشوارع ، ولم تدهش لحديثهم ... وكأنها تعرفهم من قبل . ومن وراء نشوتها الحالمة سمعت من دنيا الحقيقة مرة أخرى ضحكات المجتمعين فى الشرفة ، فاختلط عليها الخيال بالحقيقة

وأصبح كل شيء لديها مبهما .

وبدأت تستيقظ من هذا الحلم وتثوب فى استرخاء وفتور إلى الحقيقة الخالصة . وشق على نفسها هذا الرجوع ، وتحسست أعضاءها وبقية جسدها فوجدتها كما هى . فهى إذاً لم تمت بعد . ومع ذلك فقد شعرت بهدوء غامر منعها من أن تتعجل نهايتها ، وودت لو طال بها هذا الهدوء وتلك الغفوة المستحبة . وتنفست ببطء ، ورأت فى مواجهتها قمر السماء تحنو عليه أشجار الأرض ... وتغيرت بعض أفكارها ولم تعد تفكر فيما كانت تفكر فيه منذ قليل . ولما أرخى الكلوروفورم جسدها ، وهدأ روحها وخفف من سورة آلامها أخذ مع عزيمتها تصميمها على الانتحار ...

ولماذا تموت ؟ لماذا لاتكون عاشقة ومعشوقة ؟ لماذا لاتسعد بالحياة وتنعم بالعيش ؟ كل شيء بدالها ممكناً سهلا ... كما بدت أمامها الدنيا فاتنة ساحرة والعيشة راضية طيبة . ووجدت راحتها وأحلامها فى هذا السائل المخدر ... ورغبت من جديد فى الراحة والأحلام ، وصبت قطرات من سائل الهدوء والأحلام على قطعة القطن وراحت تستنشق الأبخرة المتصاعدة التى أبعدتها عن أنفها . وبدأ مفعول المخدر يظهر عليها ... فهامت فى واحة الأحلام ...

رأت قمراً يتأرجح وسط السماء وشاهدت فيه وجه امرأة تغنى بصوت تعرفه جيداً أغنية عن الحب . ولم يكن يغنى هذه الأغنية وقتئذ إلا الماركيزة وهى جالسة تعزف على المعزف . وتخيلت الفتاة أن لها أجنحة تطير بها فى ليلة جميلة مقمرة فوق غابات وأنهار ، وتدور فى الهواء دورات تعم فيها جسدها بقبلات حالمة من النسيم الرقيق ... دارت بسرعة فائقة لم تمكنها من رؤية ما تحتها ...

وشرعت تهبط رويداً رويداً حتى ألفت نفسها جالسة بجوار بركة وهى ممسكة سنارة تصطاد بها ... وأحست بشيء فى الماء يجذب السنارة فرفعت خيطها من الماء وعلق بالسنارة عقد من اللؤلؤ طالما تمنته من قبل . ولم تدهش حين عثرت على هذه اللقطة ؛ بل دهشت حينما نظرت فوجدت مرڤينيه يقترب منها فجأة من غير أن تعرف كيف وصل إليها ... ورأته جالسا بجانبها يصطاد ويخرج من الماء ... حصانا من الخشب .

وفاقت إيفت من حلمها الجميل وسمعت صوتا من بعيد يقول :

— اطفئى الشمعة يابنيتى .

وسمعت صوت مرڤينيه واضحاً وقتما قال :

— اطفئى شمعتك يا آنستى .

ثم صاح الجميع كما صاح سرڤينيه .

وأسرعت فصبّت كمية من السائل أشبعت بها قطعة قطن كبيرة ... ولم تكن ترغب فى الانتحار ... بل كان مقصدها أن تملأ جو الغرفة برائحة الكلوروفورم حتى يحس بها هؤلاء الذين ظنت أنهم اتجهوا نحو حجرتها . ولكى تزيد من جزعهم ألقت بجسدها على الأرض فى وضع يخيّل لمن يراه أنه أمام جثة لاحراك بها ... وانتظرت الأم وقالت .

— إننى قلقة قليلا ؛ إذ أخشى أن تكون صغيرتى الحمقاء قد نامت وتركت شمعتها موقدة على المائدة ؛ لذلك سأرسل الخادم « كليمانص » لتطفىء الشمعة وتغلق نافذة شرفتها .

وما هى إلا هنيهة حتى دفعت الخادم باب الحجرة منادية :

— آنستى آنستى ... !!

ولما لم يجب على ندائها مجيب ، قالت :

— سيدتى إن الماركيزة ترجوك أن تطفئى شمعتك ، وتغلق نافذتك .

وانتظرت الخادم مرة أخرى ، ثم قرعت الباب بكل ما لديها من قوة صائحة :

— آنستى ... آنستى ...

وعادت تخبر سيدتها وتقول :

— إن الآنسة مستغرقة فى النوم من غير شك . ولم استطع إيقاظها لأن باب الحجرة مغلق من الداخل .

وهتفت الأم : ولكنها لاتستطيع أن تظل كذلك !!

واتجهت هي ومن معها وصاحوا جميعاً كما أشار سرڤينيه من تحت النافذة :

— هيا هيا يا إيفت .

وعكّر صياحهم وضجيجهم صفو الليل الهادىء ، وأقض مضجع البلدة الراقدة . ولما استمرت البنت فى صمتها نطقت الأم متوسلة :

— أرجو ألا يكون قد نزل بساحتها مكروه ، أو أصابها ضر . يا آلهى لقد بدأ الخوف يساورنى ! وقطف سرڤينيه وروداً حمراء ، وبراعم لم تتفتح بعد ، من شجرة الورد الضخمة القابعة بجوار الحائط ، وراح يقذف بما قطف وما أن سقطت على وجهها أول وردة حتى انتفضت ، وكتمت صيحة كادت تفلت من بين شفتيها ... وانهالت الورود تتساقط عليها ، وانتثرت على ثوبها وشعرها . ومرقت

زهرات من فوق رأسها واستقرت على سريرها ، وصاحت الأم بصوت مختنق :

— إيفت ابنتي أجيبي ندائي وردّي علي .

وقال مرقينيه :

— حقاً إن هذا أمر غير طبيعي ، وسأذهب لأتسلق الشرفة؛ لأكتشف حقيقة الأمر .

ولكن الفارس خف إليه وهو يقول :

— إن ما ستفعله شرف لا يعادله شرف . ولكنك لم تبغ منه إلا الحصول على موعد من الجميلة إيفت ، فيالها من طريقة حديثة في عالم الغرام .

وصاح بقية المجتمعين الذين اعتقدوا أن الذي دفع الفتاة إلى هذا الصنيع إنما هو رغبتها في الانفراد بمرقينيه :

— نحن نحتج فلا تصعد . إن هذه لعبة مكشوفة ومناورة لا تخفى علينا ... وإننا ...

غير أن الماركيزة الثائرة قاطعتهم قائلة :

— لابد من صعود أي أحد بأي ثمن حتى يرى ماذا حدث .

ورد الأمير بحركة تمثيلية .

— إنها تفضل أن يصعد إليها « الدوق »

واقترح الفارس أن يعقد رهانا يصعد من يفوز فيه إلى إيفت ، وأخرج من جيبه جنيهاً ذهبياً وشرع يتراهن هو والأمير .

وقذف الفارس بالقطعة الذهبية في الهواء ، وما أن هبطت الأرض حتى هوى عليها براحة يده ليخفيها وهو يسأل الأمير :

— ملك أم كتابة ؟

قال الأمير : كتابة

ولما أزاح الفارس يده ظهر عكس ما قال الأمير ، وأخذ هذا الأخير بدوره القطعة وطوّح بها في الهواء قائلا لسافال بعد أن أخفى القطعة بباطن كفه :

— أيهما تختار ؟

— الملك .

ولكن النتيجة كانت غير ما اختار . . وأخفق الكل في هذا الرهان . ولم يبق إلا مرقينيه الذي قال للأمير بلهجته الساخرة :

— إنك تغش ! !

فرد الأمير الروسي الذي وضع يده على صدره وانحنى مادّاً

القطعة الذهبية لمنافسة سرڤينيه وهو يقول :

— تفضل واقذفها بنفسك ياعزيزى الدوق .

وأخذها سرڤينيه ورماها فى الهواء وهو يقول : ملك !

ولما استقرت على الأرض بدا الوجه الذى عليه الكتابة.

وانحنى سرڤينيه أمام الأمير ، وأشار بيده إلى أعمدة الشرفة وقال لأمير الروس :

— اصعد ياسيدى الأمير!

غير أن الأمير تلفت حوله بقلق ، وكأنه ينقب عن شىء .

وسأله الفارس — عما تبحث ؟

— أنا ... إننى أبحث عن سلم لأصعد به

وانفجر الجميع ضاحكين . وتقدم منه سافال قائلا .

— إنى سأساعدك وأعينك .

وحمله بين ذراعيه القويتين وهو يقول :

— تعلق جيداً فى الشرفة .

وتعلق الأمير بها ، وظل متعلقاً تتأرجح ساقاه فى الفضاء بعد أن تركه سافال . وكاد يصرخ وأسرع إليه سرڤينيه يقبض على قدميه المرتعشتين اللتين كانتا تبحثان عن شىء لتتكئا عليه ،

وجذبهما سرڤينيه بكل قوته ثم ابتعد ، وترك الأمير يديه وسقط — كما يسقط الحجر الثقيل — على كرش دى بلقيى الذى كان يتقدم ليمينه ويسنده . وصاح سرڤينيه :

— على من الدور بعد ذلك ؟

ولما لم يتقدم أحد تابع حديثه :

— هيا يا بلقيى ! ولتكن عندك الجرأة الكافية التى تدفعك للتقدم .

— شكراً ياسيدى، فلست أبغى أن تدق عظامى وأن يفقد رأسى ، فالى غنى منهما .

— إن التسلق من عادة الفرسان الشجعان فهيا إذاً يا أشجع الفرسان !

— لقد تخليت لك عن مكانى ولقبى فتسلق أنت !

وبقفزة قوية رائعة تعلق سرڤينيه بأسفل الشرفة العليا ، ثم رفع جسمه إلى أعلا ، متكئاً على قبضتيه ، وبوثبة رياضية أخرى أصبح داخل هذه الشرفة وصفق له الحاضرون الذين تعلقت أنظارهم به ، وما هى إلا برهة خاطفة حتى رجع مسرعا وهو يصيح :

— أسرعوا ... أسرعوا فقد فقدت إيفت الوعى .

واندفعت الماركيزة نحو السلم بعد أن اندفعت صرخة قوية من حلقها . ودخلت الحجرة ، وارتمت كالمذهولة فوق ابنتها التي أغمضت عينيها وتصنعت الموت ، وسألت الأم :

— خبرني بحق السماء ماذا بها ؟

والتقط مرقينيه زجاجة الكلوروفورم الساقطة على الأرض وأجاب :

— لقد انتحرت مختنقة !!

ثم وضع أذنه على قلبها وأضاف :

— لكنها لم تمت ، وسأنعشها ، وأعيد إليها رشدها . هل عندكم هنا روح النشادر ؟

فنظرت الأم إلى الخادم التي أجابت بذهول واضطراب :

— نعم ... ماذا ياسيدي ؟ روح النشادر المنعش ... نعم نعم ياسيدي .

— أحضريه إذاً بغاية السرعة ، واتركي خلفك الباب مفتوحا ليتجدد هواء الغرفة .

وهوت الماركيزة راكعة على ركبتيها المرتجفتين وهي تصيح :

— إيفت ... إيفت ابنتي الصغيرة ! ردي علي ... يا آلهي

يا آلهي ماذا دهاها ؟ !

واضطرب بقية الرجال وارتبكوا وتحركوا من غير أن يفعلوا شيئاً ، وأحضر بعضهم ماء وأكوابا وخلاً ومنشفة . واقترح بعضهم فقال :

— لا بد من أن ننزعوا عنها ملابسها ، حتى لا تضغط على قلبها أو تضايق أنفاسها .

واندفعت الماركيزة التي شُلّ تفكيرها ، لتنفذ هذا القول من غير أن تميه . إلا أنها لم تكن تستطيع القيام بهذه المهمة ! فجسمها يهتز ويداها ترتعشان ، فقالت :

— ليس في قدرتي أن أفعل ذلك !

وعادت الخادم وقتئذ ، وهي تحمل زجاجة دواء ، وأسرع مرقينيه يفتحها ويصب نصفها على منديل ويقربه من أنف الفتاة التي سرعان ما اهتزت ، فهز رأسه وقال :

— حسناً ... إنها تتنفس ، ولن تدوم على حالتها طويلا .

ونضح بهذا السائل ذي الرائحة النفاذة القوية صدغيها وخديها ورقبتها . وأشار إلى الخادم أن تجرد سيدتها من ملابسها .

* * *

وبقيت عليها « جونيلا » تعلوها غلالة رقيقة شفافة .. ولما حملها ليضعها على سريرها هاجه الجسد الملقى بين ذراعيه فى تراخ ، وعندما كشف له قميص نومها عن ثديها الناهدين تحركت فى قلبه رغبة دفينة . . مثيرة ؛ فدفن وجهه فى صدرها ... وسكر ثوانٍ تقدم أثناءها إلى سريرها وأرقدها .

ثم نصب قامته وهو يقول للحاضرين :

— لا شىء يستوجب الانزعاج ، وعما قليل ستفيق .

ولحظ أن عيون الحاضرين تتفرس فى محاسن الفتاة بنهم ، وهى ممدودة على سريرها . فأكلت الغيرة قلبه ، وتقدم نحوهم وهو يخفى انفعاله وغضبه وراء هذه الكلمات :

— نحن كثيرون فى هذه الحجرة ، وفى هذا ضرر ، أى ضرر ، وكلى رجاء أن تتركونى مع الماركيزة وساقال لحظات نعتنى فيها بصحة الفتاة حتى تعود لها عافيتها وصحتها .

وتكلم بلهجة جافة خشنة تنم عن السيطرة والرئاسة والسلطة . فغادروا الغرفة واحداً إثر الآخر ماعدا ساقال الذى أمسكت به الماركيزة ، وأحاطته بذراعيها ، ورأسها تتجه نحو عينيه ، وصاحت مستنجدة متوسلة به :

— أنقذها . . أنقذها . .

وأدار سرڤينيه وجهه إلى الجهة الأخرى فوجد خطاباً على المائدة ، وبحركة سريعة اختطفه ولما التهمت عيناه العنوان ، فكر وقدر وقال لنفسه :

« قد يكون بداخله ما يؤلم الماركيزة . فمن الأفضل أن أعرف ما يحويه قبل أن يعرضه عليها »

وفض الرسالة وبنظرة خاطفة قرأ ما سطر عليها وعقب :

— يا إلهى إن هذا يستوجب التفكير !

وأسرع فدس الخطاب فى جيبه ، ثم دنا من سرير الفتاة ، وتحقق من أنها قد ثابت إلى رشدها إلا أنها تتصنع الغيبوبة والإغماء ، ولا تجرؤ أن تجابه الجميع تفاديا الأسئلة التى ستنهال عليها . وركعت الماركيزة بركبتيها على الأرض ، ووضعت رأسها على السرير بجانب قدمى ابنتها . وقالت وهى تنتحب وتبكى :

— لابد من استدعاء الطبيب .

فقطع سرڤينيه حديثه الهامس مع ساقال والتفت نحوها قائلا :

— لا داعى لذلك . وإنى على وشك استرداد صحتها كاملة أخرجى عدة دقائق . . دقائق قليلة فقط ، وأنا زعيم بأنهـــا

ستحادثك بعد عودتك

وجذبها البارون سافال من ذراعها وخرجا سوياً .

وجلس سرفينيه بجوار الفراش آخذاً يد إيفت بين راحتيه وقال لها :

— مؤنستى إيفت . . إصغى إلى . .

والتزمت جانب الصمت ومشت وجهها نسمات ناعمات كأنها موجات مروحة صيغت من كل أوراق الغابة وظلال الليل وأبخرة النهر وأزاهير الحدائق ، نسمات رقيقات دافئات امتزجت برائحة الزهور المتناثرة فى الحجرة ، والورود الملقاة على السرير ، والرياحين التى رصعت الشجرة المجاورة للشرفة ، وتهادت نحو الفتاة تداعب شعرها وتقبل وجهها .

وأحست إيفت بمبيرها وشذاها فاستنشقتهـــا ، وعيناها مغمضتان وقلبها الهادىء سابح فى نشوة ، ونفسها الهانئة راغبة فى أن تعيش بأية وسيلة ، وعلى أية صورة

ولما كرر سرفينيه : — مؤنستى إيفت . . إصغى إلى . . .

قررت هى فى نفسها أن تستيقظ وتفتح عينيها . وأضاف صاحبها وقت أن رآها تتصنع الانتعاش :

— ما هذه الأفعال الجنونية التى صدرت منك ؟

فهمست : — عزيزى مسكاد ! لقد أثقلت كاهلى هموم وأحزان لم أستطع لها دفعاً .

وضغط على يدها بعطف وحنو وسأل :

— وهل حصلت من وراء هذا الصنيع على نتيجة ؟ عديني ألا تعودى لمثل ذلك مرة أخرى .

ولم تجب إلا بابتسامة أحس الشاب بوقعها فى قلبه أكثر مما رآها بعينيه ، واستل من جيبه الخطاب وقال :

— هل لى أن أطلع والدتك على هذه الرسالة ؟

وهزت رأسها دلالة على النفى . ولم يعرف ماذا سيقول لها بعد ذلك ؛ لأن الموقف أشكل عليه ، ولم يجد له منفذاً أو مخرجاً ، ثم همس ناصحاً :

— عزيزتى الصغيرة ، يجب أن يتحمل المرء نصيبه من الآلام برضا وصبر ، وأن يتقبل أعباء الحياة بصدر رحب ونفس مطمئنة ، وأن يواجه الشدائد بعزم وابتسام ، وأنا لم يغب عن بالى مر كآبتك وحزنك وأنا أعدك . . . .

فتمتمت مقاطعة :

— إنك لطيب القلب . .

وصمتا . . ثم نظرت إليها ونظرت إليه بعين ملؤها الحنان والاستسلام ومدت ذراعها فجأة نحوه ، وكأنما أرادت أن تجذبه إليها . . . فانحنى عليها وهوى على شفتيها . . . وجمعت شفاههما قبلة أغلقا أعينهما عليها . وظلا هكذا فترة خشى هو خلالها أن يفاجأ ، وهما على هذا الوضع ، فأراد أن يتخلص وقال :

— سأذهب لأستدعى لك أمك

وابتسمت له مرة أخرى ابتسامة ضمنتها كل ما تكنّ له من ودّ وحب ، وعلّقت يديها بكتفيه وأجابت هامسة :

— انتظر لحظة فإنى فى منتهى السعادة الآن .

ومرت ثوان انقضت فى صمت . . وبصوت خافت لايسمع إلا بجهد سألته :

— أخبرنى هل ستحبنى بقوة وعنف ؟

فجثا على ركبتيه بجانب سريرها ، وطبع قبلة على يدها التى أرختها له وقال :

— حباً هو والعبادة سواء !

وهبّ واقفاً حين سمع خطوات تتجه نحو الباب ، وقال :

بصوته العادى الذى تتسم نبراته بشىء من السخرية والتهكم :

— إنكم تستطيعون الدخول الآن . فقد انكشف الضر ، وذهب الكروه وانجابت الغمّة .

واندفعت الماركيزة صوب ابنتهـــا وذراعاها مفتوحتان واحتضنتها بعنف وعطف مبللة بالدموع وجنتيها ، بينما تقدم مرفينيه نحو الشرفة مشرق النفس ، منبسط الأسارير ، وضاء المحيا ، مستنشقاً من نسيم الليل الهادئ ، متزوداً من عبيره ، مردداً فيه لحنا هو خلاصة تجاربه فى عالم المرأة :

« إن المرأة متغيرة متقلبة

معتوه أحمق من يأمن لها . »

www.liilas.com
منتديات ليلاس

جي دي موپاسان

ولد « موپاسان » في مقاطعة نورماندي من أسرة نبيلة سنة ١٨٤٠م، وصل الى باريس في عام ١٨٧١ ، حيث شغل وظيفة متواضعة بوزارة الحربية لمدة عشر سنوات ، ثم تألق نجمه في عالم القصة ابتداء من سنة ١٨٨١ . وقد نشأ وفي فطرته حب الحياة ومتاعها . وكان قوى الجسم في الظاهر ، وكان لا يمل ولا يثر له قرار في لهوه فكان يهرب من المدرسة ، وكثيرا ما طرد منها بسبب هروبه . ولما بلغ طور الشباب كان يمضي في وظيفته بعض ساعات كلها خمول ؛ لأنه كان يحتفظ بأحسن أوقاته ليقضيها بين الزورق والمجداف على سطح نهر المارن ، وبين الصحاب والرفاق للدعابة والفكاهة والمرح . وكان يعيش للذة ويجري وراءها . ولكن حواسه لم تكتف بالاستماع المادي ؛ بل كانت تنظر وتلاحظ . وكان إلى جانب ذلك ذا مواهب أدبية خارقة .

وقد تتلمذ على « فلوبير » الكاتب العظيم ، وبدأ يكتب في قوة وسرعة وعمق . ونشر في مختلف الصحف والمجلات ما يقرب من ثلاثمائة قصة صغيرة جمعت في خمسة عشر مجلدا . ونشر الكثير من الروايات الكبيرة والمسرحيات . ويمتاز أسلوبه بالإيجاز كما تمتاز أفكاره بالدقة والقوة ، فطبقت شهرته الآفاق ، وفتحت له صالونات باريس أبوابها ، فاستمتع بالحياة واستمر يكتب ويكتب حتى كان إنتاجه في عام واحد أربع مجلدات .

وكان هذا المجهود الضخم سببا في انهيار صحته ، ثم ألح عليه المرض ، ولم يتركه إلا بعد أن صرعه في سنة ١٨٩٣ .

القصة الثانية

ألوان من الحب

للكاتب الكبير

أندريه موروا

www.liilas.com

florist

عذراء باريس

هي أعجوبة العصر يا صاحبي، هي سحر وجاذبية ووداعة وصبا، وبراءة، وأنوثة متفتحة الأكمام فارعة بارعة، هيفاء ناضجة مع أنها لم تتجاوز ربيعها الثامن عشر، شقراء مع أن أمها حمراء اللون، مبتهجة دائما، فرحة مرحة، طروب تضحك من الأعماق وتنسى نفسها أثناء الرقص. أما من الذي أحبها، أو من هو الذي سيخطئ بحبها فهذا ما لم يعرفه أحد بعد. إنها عشرة رجال تنتظر.. وتأمل.. وتطمع فيها. إن مثل هذه الفتاة في يد امرأة كالماركيزة تعد لقطة وثروة وربما كانت الأم وابنتها تنتظران صيدا ثمينا.

طبع هذا الغلاف
بشركة فن الطباعة